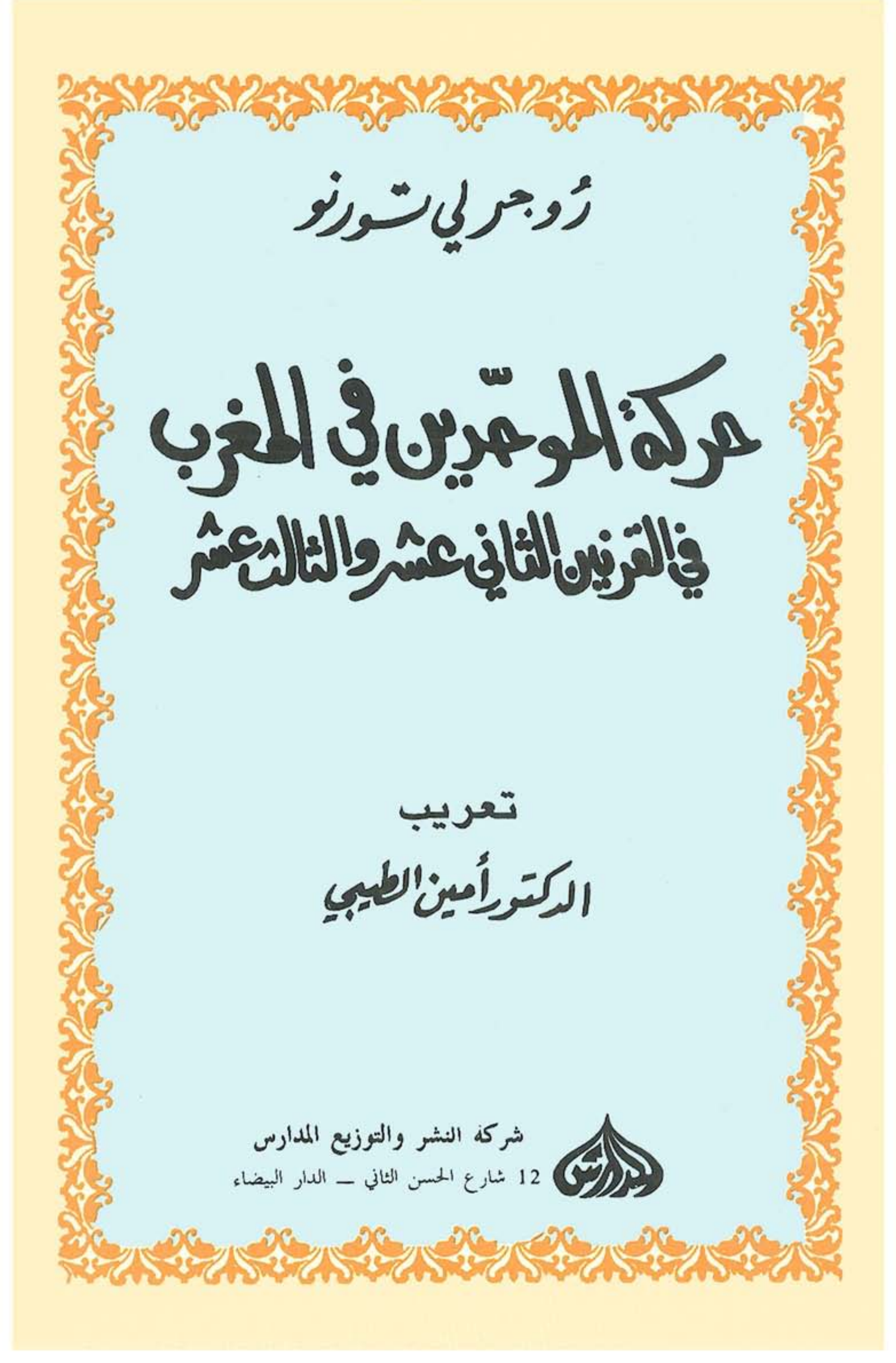

روجر لي تورنو
حركة الموحدين في المغرب
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر
تعريب
الدكتور أمين الطيبي
شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني — الدار البيضاء
المدارس

روجرلي تورنو

حركة الموحدين في المغرب

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

تعريب

الدكتور أمين الطيبي

(طبعة ثانية ومنقّحة)

1998 - 1419

شركة النشر والتوزيع - المدراس -

12 شارع الحسن الثاني

الدار البيضاء

تم التصفيف الإلكتروني والتصميم للكتاب
بشركة النشر والتوزيع - المدارس -
12 شارع الحسن الثاني - الدار البيضاء
الهاتف : 34 - 15 - 22 / 22 - 25 - 22

طبعة : 1419 - 1998

رقم الإيداع القانوني 1258 - 1998

ردمك : 0 - 48 - 803 - 9981


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المعرِّب

هذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي القرّاء هو ترجمة لكتاب بعنوان (انظر أسفله) من تأليف الدكتور روجر لي تورنو (انظر أسفله) أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة إكس-إن- بروفانس (انظر أسفله) الفرنسية، الذي قدّم عَبْر سنوات دراسات وبحوثا قيمة بالنسبة لتاريخ المغرب عامة، ولاسيما المغرب الأقصى، في فترة القرون الوسطى. والموحدون جديرون بالدارسة، إذ إنهم أقاموا إمبراطورية شاسعة، في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، امتدّت رقعتها من طرابلس الغرب شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، فضلا عن الأندلس. وكان قيام هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجة لحركة إصلاح ديني بدأها محمد بن تومرت، ولعبت دولة الموحدين دورا مهما في صدّ الخطر النصراني الذي كان يهدد ما بأيدي المسلمين في شبه جزيرة إيبرية وفي إبعاد النورمان نهائيا عن ساحل إفريقية، ولو أن البعض يرى في قيام الموحدين وقضائهم على دولة المرابطين عرقلة لحركة الجهاد في الأندلس التي اضطلع بها المرابطون إلى أن قامت حركة ابن تومرت فصرفتهم عن مواصلة الجهاد في الأندلس إلى مواجهة ثورات الموحدين في المغرب الأقصى.

إن هذا الكتاب هو كما يذكر مؤلفه، مجموعة تأملات حول حركة الموحدين منذ بدايتها حتى نهاية دولة الموحدين، ضمّنها المؤلف ثلاث

(1) (THE ALMOHAD MOVEMENT IN NORTH AFRICA IN THE TWELFTH AND THIRTEENTH CENTURIES)

(2) (ROGER LE TOURNEAU)

(3) (AIX-EN-PROVENCE)

محاضرات ألقاها في جامعة برنستون الأمريكية، تناول فيها على التوالي مولد الحركة، وتشييد الإمبراطورية، وتداعيها وسقوطها. والحق يقال إن المؤلف وُفّق فيها كل التوفيق، وتابع تاريخ الموحدين خطوة خطوة من البداية حتى النهاية، محلّلا ومعلّلا ومدعما حجته بالأدلة. وعلى ذلك ، فالكتاب قيّم بالغ الأهمية للباحثين والدارسين من حيث عرضه للحقائق وتحليلها تحليلا علميا وافيا. وقد اعتمد المؤلف في كتابه على جميع المصادر العربية الأصلية المتوفرة، وعلى مانشره المستشرقون من بحوث ومقالات في هذا الصدد. ولايعني إمساكنا عن التعليق على ماذكره المؤلف ارتضاءنا له كله أو بعضه، وتسليمنا بسلامة ما ارتآه وصحة ماذهب إليه، بل آثرنا أن نترك للقارئ اتخاذ مايراه من موقف تجاه ذلك.

وقد انتهجنا في ترجمة الكتاب عن الإنجليزية التقيد الدقيق بالنص ما أمكننا ذلك، محاولين في الوقت ذاته ألا يُخِلّ ذلك بالنص العربي أسلوبا وسلاسة، وقمنا باقتباس النصوص الأصلية من مظانّها، وأضفنا بعض الحواشي والتعليقات اللازمة مشيرين إلى ذلك في موضعه، كما حرصنا على ذكر التواريخ الهجرية مقابلة لما أورد المؤلف من التواريخ بالسنة الميلادية . وأشرنا كذلك إلى المصادر العربية الأصلية المطبوعة ما أمكن، بدلا من الإشارة إلى ترجماتها باللغتين الإسبانية والفرنسية، وأوردنا هذه المصادر في ثبت المصادر في آخر الكتاب. كما حرصنا على الإشارة، حيث يقتضي الأمر ذلك، إلى الجزء الثالث من كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري، الخاص بالموحدين، والذي صدر في تطوان عام 1963، بدلا من الإكتفاء بالإشارة إلى مجموعة هويثي ميراندا الخاصة بالمصنّفات التاريخية العربية : (4) .

---

(4) (COLECTION DE CRONICAS ARABES)

وأخيرا فإننا نأمل في أن يكون الكتاب عونا لأساتذة الجامعات والمعاهد العلمية وطلبتها والباحثين في تفاصيل حقبة مهمة من تاريخ المغرب الإسلامي، بحيث يمكِّنهم - وبخاصة أولئك الذين لايلمُّون بلغة أجنبية - من الإطلاع على ما يقوم به الباحثون المتخصصون في هذا المجال من دراسات تحليلية علمية .

والله وليّ التوفيق .

أمين توفيق الطيبي
أكسفورد - بريطانيا

تقديم المؤلف

في خريف عام 1959 ألقيت ثلاث محاضرات عامة حول حركة الموحدين في جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اقترح عليّ بعد ذلك الأستاذ ت. كويلر يونج (انظر أسفله) رئيس دائرة اللغات الشرقية بجامعة برنستون، أن أعدّ هذه المحاضرات للنشر. وقد مكّنني ذلك من التوسع في الموضوع ومن عرضه بطريقة علمية أكثر .

إن هذا الكتاب هو مجموعة من التأملات حول الموحدين، وهو لذلك ليس تاريخا للحركة، إذ أن دراسة تاريخ حركة الموحدين قد قام بها باحثون آخرون أكثر من مرة، ومنهم في الآونة الأخيرة الباحث الإسباني البلنسي أمبروسيو هويثي ميراندا (انظر أسفله) في مجلديه بعنوان : التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية (انظر أسفله) اللذين نُشرا في 1956 - 1959. إن هدفنا الرئيسي هو محاولة فهم الكيفية التي نجح بها الموحدون في توحيد كل بلاد المغرب والأندلس تحت سيطرتهم، ثم محاولة معرفة الأسباب التي أدت إلى إخفاقهم في الاحتفاظ بهذه الوحدة. وفضلا عن ذلك، فإن أهمية هذه الدراسة ليست أكاديمية بحتة، إذ إن وحدة بلاد المغرب هي قضية معاصرة اليوم، ولا نقصد بذلك القول بأن ما حدث في الماضي سوف يحدث بالضرورة مرة أخرى على نفس الأسس في المستقبل، أو أن وحدة بلاد المغرب لايمكن أن تكون سوى قضية مؤقتة وهشّة. فالعوامل والظروف الرئيسية للفترة الحديثة تختلف اختلافا

---

(1) (T. CUYLER YOUNG)

(2) (AMBROSIO HUICI MIRANDA)

(3) (HISTORIA POLITICA DEL IMPERIO AL MOHAD)

بيّناً عن تلك السائدة في الفترة الموحدية. إننا نعتقد أن بعض العوامل الأساسية القائمة اليوم كانت قائمة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وبالتالي فإن على من يَسْعَون إلى تحقيق وحدة بلاد المغرب آخر الأمر أن يفكروا ملياً في التجربة الموحدية، وأن يتجنبوا إن أمكن، بعض النواحي التي قصّر فيها الحكام الموحدون .

روجر لي تورنو

برنستون : ربيع 1968

الفصل الأول

ميلاد حركة

في خلال عام 512 هـ/ 1118م على ما يُحتمل - فسنوات هذه الأحداث ليست دقيقة جدا (1) - نزل إلى البر في المهدية بإفريقية، رجل من بربر المغرب الأقصى قادما من الشرق الأدنى، حيث كان قد أمضى سنوات طالباً وعلى اتصال وثيق بكثير من العلماء والفلاسفة البارزين. كان محمد بن عبد الله ابن تومرت عائدا إلى مسقط رأسه، وقلبه مفعم بالآراء الجديدة، وهو مقتنع بأنه يحمل رسالة إصلاح الإسلام في المغرب. وقد قُدّر له أن يبدأ حركة تُعدُّ من أهمّ الحركات المذهبية والسياسية التي سبق أن شهدتْها المنطقة، الا وهي حركة الموحدين .

وُلد ابنُ تومرت في جنوب المغرب الأقصى، ويُحتمل أن ذلك كان على المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال الأطلس الداخلية في مكان يسمى إجيلّيز- ن - هرغة (انظر أسفله). وهي قرية تقطنها بعض العائلات التي تنتمي الى قبيلة هرغة المتفرعة عن جماعة بربرية أكبر هي مصمودة المعروفة الآن باسم شلوح (انظر أسفله) (2) . وكان ابن تومرت إبناً لأحد صغار رؤساء القرية، وقد أثبت النسّابون فيما بعد أن أسرته متصلة النسب بأسرة النبي صلى الله عليه وسلم (3) . ولعل هذه الصلة صحيحة،

---

(1) حول بداية ابن تومرت والتواريخ، انظر أمبروسيو هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، الجزء الأول، ص 23 - 38 .

(2) المصدر نفسه، ص 23 .

(IGILLIZ- N -HARGHA) (SHLEUH)

(3) ليفي - بروفنسال : وثائق لم تنشر عن تاريخ الموحدين. ميراندا : التاريخ السياسي ...، انظر في موضعه ، ص 26 - 27 .

[يرى ابن خلدون أن الفقهاء نفوا انتساب ابن تومرت إلى أهل البيت مدفوعين في ذلك بعاملي الغيرة والحسد أولا، وثانيا لما آلت إليه مكانتهم في عهد الموحدين بعد أن علت منزلتهم واستأثروا بالحظوة أيام المرابطين. « وأما إنكارهم نسبه إلى أهل البيت فلا تعضده حجة لهم مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الناس مصدقون في أنسابهم ...» ، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، بدون تاريخ، ص 26 - 27 . المعرّب] .

إذ إنه في نهاية القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي وفد إلى المغرب عدة أفراد من هذه الأسرة الشريفة فرارا من اضطهاد العباسيين، وتوجه بعضهم كما يذكر بعض المؤرخين حتى جبال الأطلس. إلا أن سلسلة النسب الشريفي لابن تومرت ليست أكيدة، وقد لا تقوم على أساس. وعلى أية حال، وحتى لو كان في عروقه بعض القطرات من الدم الشريفي، فإنه تلقى تعليمه في بيئة بربرية صرفة، وكان معظم أجداده من المصامدة.

لقد دُرس المصامدة بعناية (4) لأنهم يشكلون جماعة أصيلة ومتجانسة. وكما هو حالهم اليوم، فإنهم كانوا في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يسكنون النصف الغربي من سلسلة جبال الأطلس الأعلى من المحيط الأطلسي إلى مناطق تادلا، وكل سلسلة جبال الأطلس الداخلية. وكانوا ينقسمون إلى عدد من الوحدات السياسية المتباينة الأهمية : اتحادات قبائل، وقبائل أو بطون.

وقد ظل المصامدة إلى يومنا هذا يحتفظون بلغتهم البربرية النقية، وبتنظيماتهم السياسية، وكذلك فيما يُحتمل بأعرافهم القضائية وأنماطهم العائلية، وكانوا كذلك قد اعتنقوا الدين الإسلامي منذ زمن، ولعل ذلك كان منذ أن اجتاز عقبة بن نافع تلك المناطق في أواخر القرن الأول الهجري / السابع الميلادي (5) ، أو منذ أن وفد إلى السلاسل الجبلية بجنوب المغرب الأقصى عدة أشخاص من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم فرارا من أذى العباسيين وبحثا عن مأوى أمين (6) ، أو قد يرجع اعتناقهم للدين الإسلامي إلى سنة 197 هـ / 813 م حينما أقام إدريس بن إدريس سلطانه عليهم (7).

---

(4) روبير مونتان : البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى. جاك بيرك : البنيات الاجتماعية في الأطلس الأعلى، باريس، 1955 .

(5) ليفي – برفنسال : معلومات جديدة عن فتح العرب لشمال إفريقيا، نُشر البحث في مجلة (ARABICA) العدد 1 (1954)، ص 38 - 39 .

(6) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 4.

(7) المصدر نفسه ص 27 ، حيث يُذكر المصامدة بالاسم .

وكان إسلامهم منغرسا بعمق في نفوسهم، إلا أن ذلك الإسلام كان يفتقر إلى العقيدة والشرائع، أي أنه كان إسلاما يستهوي القلوب أكثر من تبديله لأعراف القوم .

كان المصامدة في الفترة التي ولد فيها ابن تومرت يخضعون نظريا لحكم المرابطين، إلا أنهم كانوا فيما يبدو يتمتعون بما يسمى اليوم بالإستقلال الداخلي مع استثناء وحيد. فقد كان السلطان المرابطي يوفد من آن إلى آخر حملة عسكرية إلى المغرب لجباية الضرائب، وكان جنود المرابطين يتصرفون وكأنهم دخلوا بلادا مفتوحة (8) . إلا أنه ليس ثمة مايدل على أن شعورا بالثورة ضد السلطة الحاكمة كان قد ظهر في أذهان المصامدة قبل عودة ابن تومرت إليهم بعد إقامته في المشرق، كما أنهم لم يشعروا بأي قلق من الطريقة التي مارسوا فيها ديانتهم الإسلامية .

إن تاريخ مولد ابن تومرت ليس واضحا – وقد ذكر المؤرخون تواريخ لولادته تتراوح مابين عام 470 هـ / 1077م وعام 490 هـ / 1097م - إلا أنه إذا أوجزنا كل المعلومات المتوفرة، كما فعل هويثي ميراندا، أمكننا افتراض أن تاريخ ولادته كان قريبا من عام 472 - 473 هـ / 1080 م .

ولا نعرف شيئا محددا عن طفولته، اللهم إلا أن ابن تومرت كان صبيا متدينا ومجدا إلى حد كبير. وفي عام 500 هـ / 1106 م أو بعد ذلك، شرع في طلب العلم، ويحتمل أن يكون قد أمضى بعض الوقت في قرطبة. ثم سافر بحرا إلى المشرق الإسلامي حيث من المؤكد أنه قضى نحو عشر سنوات. إن هذا النوع من السلوك لم يكن مألوفا بين البربر في المغرب الأقصى، إلا أنه بعد ذلك بسنوات، كان شاب آخر من البربر هو عبد المؤمن، يوشك أن يتوجه إلى المشرق لنفس الغرض، إذا كان لنا أن نأخذ بروايات المؤرخين، حينما تقابل مع ابن تومرت كما سنرى فيما

---

(8) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، 8 / 296 .

بعد. وللمرء أن يتصور أن ابن تومرت حينما شرع في التوجه إلى المشرق لم يبتغ إلا أن يصبح عالما . بيْد أن من المؤكد أنه حينما عاد إلى المغرب، اعتبر نفسه صاحب رسالة، وهي رسالة الإصلاح الديني. فالمراكشي، أحد مؤرخي فترة الموحدين، وبعض المؤرخين الآخرين، يصوّرونه يتصرف كمصلح للأخلاق في الاسكندرية، وحتى على ظهر المركب في طريق عودته إلى المغرب(9) وبودنا أن نعرف بالتفصيل تطور تفكير ابن تومرت أثناء إقامته في مصر والشام، إلا أنه لا تتوفر لدينا سوى معلومات محدودة ومتناقضة أحيانا. فعلى سبيل المثال، يقول بعض المؤرخين استنادا إلى أقوال شهود عيان، أنه لقي الإمام الغزالي في بغداد وتسلم على يديه مهمة الإطاحة بالمرابطين سادة المغرب الأقصى آنذاك، بينما يؤكد آخرون كابن الأثير المؤرخ الحسن الإطلاع جدا في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، تأكيدا قاطعا أن ذلك الاجتماع لم يتم إطلاقا. وفيما يلي نصُّ العبارة بهذا الخصوص التي أوردها صاحب كتاب (الحلل الموشية) : « حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمان العراقي، شيخ مسنّ من سكان فاس قال : كنتُ ببغداد بمدرسة الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي، فجاءه رجل كثُّ اللحية على رأسه كرزي (عمامة) صوف، فدخل المدرسة وأقبل على الشيخ أبي حامد، فسلم عليه فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المغرب الأقصى.

قال : دخلت قرطبة ؟ قال : نعم

قال : كيف فقهاؤها ؟ قال : بخير.

قال : هل بلغهم كتابُ الإحياء ؟ قال : نعم .

قال : فماذا قالوا فيه ؟ فصمت الرجل حياءً، فعزم عليه ليقولنّ ما طرأ. فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت . قال : فتغيرّ وجهه ومد يده إلى الدعاء، والطلبة يؤمّنون . فقال : اللهم مزّق ملكهم كما مزقوه، واذهب

(9) المراكشي : المُعْجِب، ص 179 .

دولتهم كما أحرقوه. فقال أبو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي : أيها الإمام، ادع الله أن يجعل ذلك على يدي . فتغافل عنه، فلما كان بعد أيام، أتى الحلقة شيخ آخر على شكل الأول، فسأله الشيخ أبو حامد، فأخبره بصحة الخبر المتقدم، فدعا بمثل دعائه الأول. فقال له المهدي : على يدي إن شاء الله . فقال : اللهم اجعله على يدك . فقبل الله دعاءه . وخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغداد وصار إلى المغرب، وقد علم أن دعوة الشيخ لا تُرد» (10) .

وقد خُيِّل إلينا بادئ الأمر أن هذه الشهادة كانت صحيحة وأن ابن تومرت بتأثير الإمام الغزالي، تكشّفت له فجأة رسالة سياسية في المغرب، وأنه عاد إلى مسقط رأسه وقد عزم على الإطاحة بدولة المرابطين (11) . إلا أننا بعد التفكير في الأمر انتهينا إلى أننا كنا على خطأ . فلم نكن قد أعرنا الإهتمام الكافي إلى الطبيعة الأدبية لوصف الكاتب للحادثة، وإلى التطابق الغريب والكامل أكثر من الحد لاجتماع رجلين قدما من الأندلس في غضون بضعة أيام، وإلى الالتفات المسرحي للإمام الغزالي ضد المرابطين. وقد أعدّ كل ذلك بشكل كامل يستبعد معه تصديقه . وفضلا عن ذلك، فإن ابن تومرت حينما عاد الى المغرب لم يسلك فورا مسلك عدوّ للمرابطين، وإنما تصرفَ مُصلِحٍ أخلاقي وفقيه ليس إلا . فبدلا من أن ينطلق بسرعة نحو أراضي المرابطين، أمضى شهورا، ولعله أمضى سنوات، في الطرف الشرقي من شمال إفريقيا الذي لم يكن تحت سلطان المرابطين . فلو أنه كان مقتنعا بأنه عُهد إليه بنوع من الرسالة المقدسة لإقصائهم لسلك مسلكا آخر . لذلك يبدو أن الشهادة السابقة ينبغي رفضُها، كما ينبغي كذلك نبذُ الفكرة القائلة أن الإمام الغزالي مسؤول عن الدعوة السياسية لابن تومرت .

(10) الحلل الموشية، ص 85 - 86 .

(11) روجر لي تورنو : مقالة بعنوان : " الغزالي وابن تومرت هل تقابلا؟ "، في مجلة الدراسات العربية (BULLETIN DES ETUDES ARABES) وحول الموضوع، انظر اعتراضات هويثي ميراندا في مقاله بعنوان : "الأسطورة والتاريخ في نشأة الإمبراطورية الموحدية" ، مجلة (الأندلس)، العدد 14 (1949)، ص 342 - 345 .

ومهما يكن من أمر، فإن إقامة ابن تومرت الطويلة في مصر والشام كانت بالتأكيد الأساس لسلوكه في المستقبل . ففي هذين البلدين وجد ابن تومرت نفسه في جو فكري حافز . فالمجادلات الفقهية العظيمة التي جرت في القرون السابقة كانت قد خلّفت آثارا، وكانت المدرسة الفقهية الأشعرية التي كانت قد سادت آخر الأمر ما تزال في أوج قوتها ونشاطها . وإذا لم يكن ابن تومرت أحد طلبة الإمام الغزالي ولا من أتباع مذهبه، فإن من الجلي أنه كان قد سمع بذلك المذهب . ويستطيع المرء أن يتصور بسهولة النشاط العظيم لعقل ابن تومرت . فكان يقارن باستمرار بين ما شاهده وسمعه في المشرق، وبين ضحالة الإسلام وسذاجته في المغرب، وخصوصا في موطنه المغرب الأقصى، منتهيا إلى أن الوضع هناك ينبغي تغييره وإلى أنه سيكون هو الأداة لذلك التغيير. إلا أننا مقتنعون بأنه قد توصل إلى هذا الرأي تدريجيا، وأنه فكر فيه على أساس الأخلاق وربما الفقه، دون أن يكون تفكيره قائما بعد على أساس سياسي . وليس بوسعنا معرفة ما إذا كان قد اتخذ موقفا سياسيا قبل وصوله إلى مدينة مراكش .

لذلك فإنه تبدو بعيدةً عن الحقيقة تلك الصورةُ التي رسمها مؤرخو ابن تومرت، وهي أنه تملّكه شيء من الوحي (كما حدث للقديس بولص في طريقه إلى دمشق) وأنه شعر بأنه عهد إليه برسالة سياسية ودينية، كما يصور ذلك كثير من المؤرخين سواء منهم من كان يميل إليه أم لا .

وعلى أية حال، فإنه يبقى صحيحا أن ابن تومرت تأثر تأثرا عميقا برحلته إلى المشرق، وعاد وهو يؤمن بأن الإسلام في المغرب، وبخاصة في المغرب الأقصى، لم يكن كما ينبغي أن يكون . وإذا كان ابن تومرت لم يعد من المشرق كثائرٍ سياسي، فإنه عاد كمصلح للأعراف والعقيدة، ومن المحتمل أنه كان مقتنعا بأن من واجبه الوصول بمثل هذا الإصلاح إلى نهاية موفقة، وأنه هو الشخص الوحيد الذي يستطيع القيام بذلك .

هكذا كانت، فيما يبدو لنا، الحالة الفكرية لمهديِّ المستقبل، حينما شرع في رحلته عائدا إلى وطنه. فمن المستبعد أنه كان في تلك الفترة المبكرة قد أعد خطة محددة للعمل، إذ إنه كان قد ابتعد عن وطنه زمنا طويلا، ولا يحتمل أنه كان على علم بما يجري في وطنه . إلا أنه يبدو واضحا أنه نظر إلى نفسه وكأن المولى عز وجل قد عهد إليه بهداية إخوانه البربر إلى الصراط المستقيم . ولا يبدو أن هذا الإيمان كان نتيجة لأي مؤثر خارجي معين، كالإمام الغزالي مثلا، بل نتيجة لتطور داخلي طويل إثْرَ كل ما شاهده وسمعه أثناء السنوات التي أمضاها في المشرق. ومن المؤسف أنه لا يتوفر لدينا من المعلومات ما يوضح هذه الفترة في حياة ابن تومرت، ولكن القسم الأول من كتاب البيذق، الذي كان من الممكن أن يكون مساعدا، إما أنه فُقد وإما - وهو الأكثر احتمالا- أن المؤلف وهو رجل بسيط، لم يكن في استطاعته أن يتتبع بصورة كافية التطور في تفكير رجل كالمهدي .

وفضلا عن ذلك، فلا يبدو أن حركة ابن تومرت كانت استجابة لحاجة عميقة من جانب السكان البربر . وكما سبق أن أكدنا، فليس ثمة ما يسمح للمرء بالاعتقاد أن البربر تحت حكم المرابطين كانوا يعانون من قلق روحي. وعلى الأكثر يظهر أنهم وجدوا أن الحكام المرابطين افتاتوا أحيانا على حريتهم، ولكن ذلك لم يكن بصورة أكثر شدة مما قامت به الدول المختلفة التي تعاقبت على الحكم في المغرب الأقصى .

وبالطبع فإن ابن تومرت وجد بعض الظروف المواتية التي عرف كيف يستغلها، إلا أن في وسع المرء القول أنها لم تكن عاملا حاسما. وقد ساهمت بدورها كنتيجة فقط لمبادرة ابن تومرت .

وعلى ذلك، فإن للمرء أن يستخلص أن حركة الموحدين في أول أمرها تلقَّتْ حافزها من التطور الروحي لشخص بمفرده، ومن إرادته التي لا تنثني لإنجاز الرسالة التي كان قد اضطلع بها .

ومن المحتمل أن ابن تومرت نزل إلى البرّ في المهدية في مغرب لم يسبقْ له قط أن عرف الوحدة السياسية، باستثناء فترة تقرب من ثلاثين سنة في بداية الفتح العربي . وبعد وصول القبائل العربية الرحل في عام 443 هـ /1051 م، تجزأ شرق المغرب، أي إفريقية، إلى عدة إمارات صغيرة حكمت بعضَها أسر عربية، وحكمت البعضَ الآخر أسر من البربر. وقد هدد البدو مملكة بني حمّاد بدورها، وهي دولة بربرية قامت في المغرب الأوسط في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فقرر ملوكها نقل عاصمتهم من قلعة بني حماد إلى بجاية في عام 484 هـ /1091 م، وبذلك تخلوا عمليا عن الجزء الجنوبي من أراضيهم للبدو .

أما إمبراطورية المرابطين، التي تأسست قبل ذلك بنحو خمسين عاما على أيدي جماعة من قبائل البربر في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى، فقد كانت ذات حضارة مستقرة باهرة، ازدهرت إلى الغرب من مملكة بني حمّاد (12) . وبقيادة رجل على جانب عظيم من الكفاءة هو يوسف بن تاشفين، إستولى المرابطون على النصف الغربي من المغرب وعلى كل بلاد الأندلس . وبعد ذلك بوقت قصير، تحوّل هؤلاء البربر تحت تأثير الأندلس من رعاة للإبل - وكان ذلك على الأقل بالنسبة للنخبة منهم - إلى شعب على مستوى عال من الثقافة، أولع بالشعر الأندلسي والفن المعماري الأندلسي والترف الأندلسي، وبكلمة واحدة فإنهم تعلّقوا بالحضارة الأندلسية، ولم يدخروا وسعاً في نقل هذه الحضارة إلى المغرب، حيث كانت هذه الحضارة قد ظهرت بصورة خافتة في نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ولم تكن إمبراطورية المرابطين أكبر دولة إسلامية تقام في شمال إفريقيا : ففي عهد الخلافة الأموية كان قد توحّد تحت سلطة حاكم واحد

---

(12) حول المرابطين، انظر هنري تراس : تاريخ المغرب الأقصى، الجزء الأول، ص 211 - 260

كلُّ الشمال الأفريقي وكلُّ شبه جزيرة إيبرية تقريبا، وبعد ذلك في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي شمل حكم الفاطميين الجزء الأكبر من بلاد المغرب، إلا أنه حتى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لم يكن البربر قد نجحوا في خلق وحدة سياسية كبيرة كهذه تحت لواء الإسلام . وكانت الإمبراطوريات السابقة قد أقامها فاتحون من خارج المنطقة فرضوا حكمهم . ومن الواضح أن قبيلة كُتامة كانت قد ساعدت الفاطميين على إقامة سلطتهم والاحتفاظ بها، إلا أنها كانت مجرد أداة في أيدي سادةٍ من المشرق تنازلوا لمعاونيهم البربر عن بعض منافع السلطة، وعن بعض الامتيازات، مع أنهم لم يدعوهم يشاركون في استعمال السلطة .

أما بالنسبة للمرابطين، فإنهم كانوا بربرا حقيقيين، أقاموا دون مساعدة أحد إمبراطوريتهم بأيديهم. فعبد الله بن ياسين، المؤسس الديني لحركة المرابطين، وأبو بكر بن عمر أول رئيس مرابطي فتح الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى، ويوسف بن تاشفين الذي وسع رقعة سيادة المرابطين إلى مدينة الجزائر شرقا وإلى سرقسطة شمالا، كانوا ثلاثتهم ينتمون إلى بربر قبيلة صنهاجة، وقد ولدوا في بيئة بربرية .

غير أن سلطة المرابطين احتوتْ في نفسها بذرة ضعفها . فحينما استقرّت القبائل الوافدة من الصحراء في المغرب والأندلس، لم تسمح لقبائل البربر التي أخضعتها بالقوة بأن تشاركها انتصارها . فقبائل زناتة التي كانت قد وطدت سلطتها في جزء كبير من البلاد، اعتبرتها قبائل صنهاجة منافسة لها، ولعلها اعتبرتها منافسةً وراثية إذا سلمنا بأن عداء عنصريا كان قد خلق العداء بين هاتين المجموعتين، وعوملت قبائل زناتة كقبائل منافسة . أما قبائل برغواطة (13) التي عوملت على أنها مارقة عن

(13) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، المجلد الأول ص 1075 (الطبعة الفرنسية)، ص 1042 - 1045 (الطبعة الإنجليزية) .

الدين، فقد استؤصلت لهذا السبب . وجدير بالملاحظة أن قبيلتي زناتة وبرغواطة كانتا تشكلان مجموعتين بربريتين مهمتين في المغرب الأقصى وغرب الجزائر . أما قبائل البربر الأخرى (كالمصامدة مثلا)، التي لم يتم إخضاعها، فإنها مع ذلك هبطت إلى مرتبة الرعايا حسب التقليد المُتبّع . وعلى أية حال، فإن مسلمي الأندلس قد نعموا بحضارة زاهية ورفيعة، ومع أن الكثيرين منهم شاركوا كفنيين في تشييد إمبراطورية المرابطين، فإنهم عوملوا في بلادهم معاملة شعب مغلوب على أمره، وأصبحوا تحت رحمة جنود المرابطين وإجراءاتهم المزعجة (14) .

وليس ثمة ما يدل على أن البربر تحت سيادة المرابطين، حملوا في صدورهم أفكارا للثورة، إلا أن للمرء أن يتصور بأنهم أحسوا بشيء من الإستياء حينما رأوا صنهاجة الصحراء يحكمون بمفردهم، ويسلكون باستعلاء تجاه من لم يكن ينتمي إلى جماعتهم المنتصرة . وعندئذ لنا أن نفترض باطمئنان أنهم كانوا على استعداد لاتّباع كل من يعارض السادة المرابطين .

وبالرغم مما بلغته حضارة دولة المرابطين من ازدهار في ذلك الوقت، فإنها كانت من بعض النواحي غير مستقرة، إذ إن هذه الزهرة الجميلة كانت قد نمت بسرعة كبيرة وكانت غضّة . وإذا تركنا جانبا الحكام الذين تثقفوا ولم يعودوا سُذّجا، فإن معظم المرابطين وبقية سكان المغرب الأقصى كانوا ما يزالون على البساطة، وأخذت الشقة في الإتساع بين النخبة وبين أغلبية السكان . ومن ناحية أخرى، فإنه حتى الحكام المرابطون كانوا أسارى نشأتهم الدينية، فكانوا قد استولوا على المغرب الأقصى باسم الدين، مقتنعين بأنهم يحملون رسالة إصلاح الإسلام في

(14) ليفي – بروفنسال : إشبيلية الإسلامية في القرن الثاني عشر، باريس، 1947 ص 61 - 62.

[ابن عبدون . رسالة في القضاء والحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية، القاهرة، 1955 ص 16 ، 28 – المعرّب] .

تلك البلاد، وبالتالي فإنهم منحوا الفقهاء سلطة كبيرة . وكان الفقهاء مشبعين بالمبادئ الصارمة للمذهب المالكي، وهكذا فإنهم كانوا يسيرون طبقا للنص الحرفي للقرآن الكريم لا طبقا لروحه، فكان أن ظهروا بمظهر التمسك الشديد بالشكليات . وقد وصل بهم الأمر في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي إلى أن أحرقوا علناً كتاب الإمام الغزالي (إحياء علوم الدين) إذ اعتبروه مجموعةً من البدع (15)، وأخيرا وبعد عام 500 هـ /1106 م، خلف يوسف بن تاشفين على رأس دولة المرابطين ابنه علي بن يوسف، وكان شديد الورع، حسن الثقافة، ومتعلقا بالحضارة الأندلسية، إلا أنه كان ضعيف الإرادة، واقعاً تحت التأثير الكامل لضيقي الأفق من الفقهاء (16) . وباختصار، فإنه كان يقوم خلف المظهر الخارجي الجميل لإمبراطورية المرابطين مجتمع في مرحلة انتقالية، ولم تكن الأجزاء التي جمعت بأمر يوسف بن تاشفين قد التأمت التئاما جيدا .

ولما نزل ابن تومرت إلى البر، شرع دون استعجال في رحلته صوب المغرب الأقصى، يرافقه ثلاثة من أصحابه كلُّهم مثله من البربر، وكان من بينهم البيذق صاحبُ مصدرنا الرئيسي عن بداية ابن تومرت . ويبدو أن ابن تومرت قبل وصوله إلى بجاية توقّف في أماكن كثيرة، وألقى دروسا علنية وحاول إصلاح العادات الأخلاقية . وفي بجاية، ساءه ما شاهده من ترف وانحلال خلقي، فبذل قصارى جهده لتصحيح ما اعتبره منكراً حتى إنه لجأ إلى استعمال العنف في بعض الأحيان .

إن ما رآه مستهجنا يستحق التقريع، كان السلوك العام الذي باستطاعته أن يلاحظه ويعاقب عليه في الحال . فيشير المؤرخون (17) إلى

---

(15) حول هذه النقطة انظر، من بين المراجع، المراكشي : المعجب، ص 172 - 173 .
(16) المصدر نفسه، ص 171 وما بعدها .
(17) ليفي- بروفنسال : ست قطع عن بداية الموحدين من تاريخ لمؤلف مجهول الإسم، نشرت في (MELANGES RENE BASSET) الجزء الثاني، باريس، 1925، ص 347 - 348 .
البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 52 .

أنه في بجاية كانت ملابس النساء زاهية الألوان مترفة، وكان بعض الرجال يرتدون ملابس نسائية، وكان الجنسان يختلطان في الشوارع بمناسبة الاحتفالات الدينية، وكان النبيذ يُباع علنًا . وفي فاس بعد ذلك، وجّه ابن تومرت اهتمامه إلى الأدوات الموسيقية وأمر طلاّبه بتكسيرها بالجملة (18). وقد حاول أول الأمر بأن يبيّن للناس بأنهم يرتكبون منكرا، وعمل جهده لإعادتهم طوعا إلى الصراط المستقيم . وإذا لم يمتثلوا لتقريعه لهم، كان لا يتردد في تأديبهم بالعصا إذا ما رأى أن سلوكهم مخالف للوظيفة الصحيحة للمجتمع الإسلامي . وكان لموقف ابن تومرت وأعماله في بجاية بعض ردود الفعل، وطلبت إليه السلطات مغادرة المدينة. ولعلّه حتى هو نفسه أدرك بأن الجو الفاسد في بجاية كان متفشيا لدرجة أنه لم يكن في مقدوره إنجاز أي شيء بتأنيبه للناس بمفرده، واستعمال العنف مع غير التائبين منهم . وما كان ليتسنّى بلوغ الغاية المرجّوة إلا بالعمل الطويل المضني، ولذلك فإنه ترك بجاية طوعا . واختار بعد ذلك التدريس في ضيعة ملالة الصغيرة على بعد بضعة أميال من بجاية، على الضفة اليسرى لنهر سمّان، وفيها شيد مسجدا خاصا، واستقبل بعض التلاميذ، وتصرف إجمالا وكأنه كان يعتزم البقاء فيها مدة طويلة . ويبدو واضحا من هذا أنه لم يعتزم في هذا الوقت الشروع في عمل سياسي ضد المرابطين، إذ إنه دفن نفسه في مثل ذلك المكان النائي، ولم يكن بوسعه من ملالة القيام بأية خطوات هادفة، ويبدو أن إصلاح الأعراف الأخلاقية في بجاية كان موضع اهتمامه الأول وكل هدفه في هذا الوقت .

وفي ملالة لقي ابن تومرت الرجل الذي قُدّر له أن يخلفه، وأن يصبح المؤسّس الحقيقي لإمبراطورية الموحدين، ألا وهو عبد المؤمن بن علي، وموطنه سلسلة جبال ترارة الساحلية غربي وهران. ويكاد يُجمع المؤرخون على أن هذا اللقاء بين الزعيمين كان نتيجة لعناية إلهية . ويروي البيذق،

(18) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 64 - 65.

وهو يدّعي أنه كان شاهد عيان خبَر اللقاء، ويبدو أن روايته أكثر الروايات صحة. يقول البيذق إن عبد المؤمن كان في طريقه إلى المشرق مع أحد أعمامه، ولما نزل ببجاية سمع بابن تومرت، ورغب في رؤيته فأذن له عمّه بالسير إلى ملالة لهذا الغرض .

« لما جدّ (عبد المؤمن) السير نحو الإمام، اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد . فرفع المعصومُ (ابن تومرت) رأسه فوافقه أمامه فقال له : ادخل يا شاب . فدخل، فأراد أن يقعد في جملة الناس، فقال له الإمام المعصوم : أُدْنُ يا شاب . فلم يزل يدنو من الإمام والمعصوم يقرّبه حتى دنا منه . فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال : عبد المؤمن. فقال له المعصوم : وأبوك علي . فقال : نعم . فتعجب الناس من ذلك. فقال له : يا شاب، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية . فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم .

فزاد الناس تعجبا. فقال له المعصوم : أين تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدي، نحو المشرق ألتمس فيه العلم . فقال له المعصوم : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وَجدْتَه بالمغرب .

فلما انصرف الناس من القراءة، أراد (عبد المؤمن) أن ينصرف فقال له المعصوم : تبيت عندنا يا شاب . فقال له : نعم يافقيه . فبات عندنا، فلما جنّ الليل أخذ الإمام المعصوم بيد (عبد المؤمن) وسارا. فلما كان نصف الليل، ناداني المعصوم : يا أبا بكر، ادفعْ لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر . فدفعته له. وقال لي : أسرج لنا سراجا . فكان يقرأه على الخليفة من بعده، وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لايقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين .

فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال : يافقيه، ماكنتُ في شيء من هذا، إنما أنا رجل أريد ما يطهّرني من ذنوبي .

فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لأقوام كنتَ أنت مقدَّمَهم، وويلٌ لقوم خالفوك، أولهم وآخرهم . أكثِرْ من ذكر الله يبارك لك في عمرك، ويَهْدِكَ ويعصمك مما تخاف وتحذر .

ثم قال لي المعصوم : يا أبا بكر، ناد الصبيان للوِرْد يقومون يأخذون حزبهم. فلما أقبلوا، ناداهم فقال لهم : إنما الله إله واحد، والرسول حق، والمهدي حق، والخليفة حق، فاقرأوا حديث أبي داود تعرفوا الأمر، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم والسلام . فأخذوا وِرْدَهم، وقرأوا حزبهم .

فلما أصبح، أقبل يعلو (عمُّ الخليفة عبد المؤمن) وقال له : ياعبد المؤمن ، حَبَسْتَنا حتى تقلَعَ المراكب ؟

فقال له المعصوم : العلم الذي يريد بالمشرق قد أتاه بالمغرب . فاترك الأمر على مراد الله والإمام .

وكان (عبد المؤمن) يقرأ على الإمام المعصوم، وكان أفهمَ الطلبة . وكان إذا أراد النوم، يقول له المعصوم : ينامُ من تنتظره الدنيا ؟ فلم يزل على تلك الحال أشهرا » (19) .

إلا أن ابن خلدون يقول إن عبد المؤمن، وكان آنذاك طالبا في تلمسان، أُوفد إلى ابن تومرت من قِبَل زملائه الطلبة ليطلب إليه أن يحلَّ محلَّ أحد معلميهم الذي كان قد توفي قبل ذلك بقليل . وهذا يدل على شيئين على الأقل : أولهما أن صيت ابن تومرت كان آخذا في الانتشار في كل مكان، وثانيهما أنه أقام في ملالة وقتا طويلا نوعا ما، إذ إن وسائل الاتصال كانت بطيئة جدا في ذلك الوقت، ولكي تنتشر الشهرة بهذه الطريقة، كان الأمر يحتاج إلى فترة طويلة من الزمن .

---

(19) المصدر نفسه، ص 55 - 57 .

ومن الصعب جدا معرفة أدعى الروايتين للقبول - رواية البيذق بما لها من طابع يكتسي عناية إلهية، أم تفسير ابن خلدون الأقرب لأن يتقبله العقل. ولعل تفسير ابن خلدون أكثر استهواء للمؤرخ الحديث، لأنه تفسير أدعى للتصديق، كما أن ابن خلدون يحظى - بحق - بمكانة مرموقة بين الكُتاب الغربيين . بَيْدَ أنه ينبغي أن لايغرب عن البال أن ابن خلدون دوّن هذه الأحداث بعد وقوعها بقرنين ونصف القرن من الزمن، وأن معلوماته عن فترة الموحدين مليئة بالفجوات الخطيرة .

إن البيذق لم تكن لديه بالتأكيد المقدرة الفكرية التي كانت لابن خلدون، وفي كثير من الحالات يبدو سريع التصديق، ويكرس كل جهده نحو هدف واحد . وفضلا عن ذلك فمن المؤكد أنه دون روايته في وقت متأخر جدا، في عهد عبد المؤمن .

ولعل الزمن قد غبّش أو شوّه ما وعته ذاكرته، إلا أن الحادث كان من الأهمية واستدعاء النظر، بحيث إنه لابد أن يكون قد ترك أثرا قويا في ذهنه البسيط، فهو يسرد تفاصيل محددة كثيرة، ويؤكد أنه كان شاهد عيان للوقائع التي يتحدث عنها، مما يدعونا إلى التزام جانب الحكمة والحذر قبل الحكم على قوله. وقصارى القول، إننا نعتقد أن من غير الحكمة إغفال رواية البيذق والاعتماد على رواية ابن خلدون . وللمرء أن يرتاب في بعض التفاصيل، إلا أن رواية البيذق في مجملها العام ينبغي أن تولَى اهتماما جديا .

ولم تَبْدُ لابن تومرت حتى هذه الفترة أية مشاغل سياسية : فهو يدرس ويحاول إقناع الناس، أو إرغامهم على التقيد بأحكام الشرع، أو بالأحرى بتفسير صارم للشريعة . وباختصار فإن ابن تومرت يتصرف كذائد عن الشريعة، التي هي صالحة لكل زمان ومكان، ضد الأعراف المحلية . ومن المحتمل أن صراعا قد نشأ في بادىء الأمر في ذهن ابن تومرت، ولكنه وقد أدرك أن الشريعة يجب منطقيا أن تحل محل الأعراف، أخمد شكوكه

وسيطر على العادات التي ورثها عن آبائه، وبذلك نصّب نفسه ذائدا عن الشريعة .

وحين يترك ابن تومرت ملالة، هل كان ذلك استجابة فقط لدعوة طلبة تلمسان ؟ بشأن هذه النقطة ينبغي أن تؤخذ باهتمام شديد رواية البيذق التي انفرد لسوء الحظ بها وحده دون غيره، والتي يكتنفها الغموض . فهو يقول بعد روايته التي تقدّم اقتباسها مباشرة (20) : « فلما كان يوم من الأيام، أقبل رجلان يريدان المشرق، إسم أحدهما عبد الله بن عبد العزيز، والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم، فقال لهما الإمام: من أين أقبلتما أيها الرجلان ؟ قالا : من بلاد المغرب، ولما وصلا بقيا باهتين . فقال لهما الإمام المعصوم : مالكا لا تتكلمان ؟ فقالا له : نحن مانفهم العربية . وقالا له : يافقيه، وصلنا من بلاد الأطلس من تينملال . فسألهما في قولهما، ودعا لهما، وسارا. فلما أمسى المساء، قال لنا : عوِّلوا على السير نحو المغرب إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله .»

وليس من المؤكد أن هذا اللقاء كان حاسما، مع أنه لاشيء آخر يفسر المبارحة المفاجئة لابن تومرت، الذي كان قد استقر بدون متاعب في ملالة في ذلك الوقت . إلا أن على المرء أن يذكر ما حدث، وأن يبني افتراضاً على وصف زيارة ذينك الرجلين من البربر، وهو حادث ترك ذكرى محددة كتلك في ذهن البيذق . أليس من الممكن أنهما بروايتهما أثارا فجأة أفكارا في ذهن ابن تومرت كانت حتى ذلك الوقت قد أخذت فقط تتضح شيئا فشيئاً ؟ ألم يبدأ ابن تومرت في ذلك الوقت يفكر أن عملا سياسيا ضد المرابطين كان ممكنا في المغرب الأقصى، وأنه على أية حال ينبغي أن يتوجه غربا، وأن يدرس الوضع على الطبيعة في المكان عينه ؟

---

(20) المصدر نفسه، ص 57 .

إن ماهو أكيد ويتمشّى مع الإفتراض الآنف الذكر، هو أن ابن تومرت بعد أن ترك ملالة كان على مايبدو متلهفا للوصول إلى موطنه بسرعة، بينما نجده لا يتردد في السابق في التوقف في طريقه فترات طويلة . ومع ذلك، فإنه أثناء وجوده في المناطق الخاضعة لحكم المرابطين لا يتوانى عن مجادلة رجال الدولة واعظاً إياهم، وعن محاولة إقناعهم بنقض القرارات التي يراها مخالفة للشريعة . ففي أكرسيف، يُجبر وزيرا على رد غرامة جماعية كان قد فرضها على الأهالي لأن نعامةً له كانت قد قُتلتْ، ولذلك الغرض يسير ابن تومرت إلى المرابط صاحب الأمر في البلدة وينجح في مسعاه. وفي فاس كما يذكر المراكشي (21)، أمره الوالي بالخروج من المدينة بتحريضٍ من عدة فقهاء ظهر عليهم ابن تومرت في مناظرة . وفيما بعد، لم يتردد ابن تومرت في مواجهة السلطان المرابطي نفسه. وباختصار، فإنه يكتسب ثقة متزايدة في نفسه، ويبدأ في اعتبار سلطته الروحية مساوية على الأقل للسلطة الزمنية للوزير والوالي . وهل يختلف ذلك كثيرا عن اقتناعه بأن هذه السلطة الزمنية ينبغي أن تخضع للسلطة الروحية التي ينبغي أن تحل محلها تدريجيا ؟

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن إيمان ابن تومرت الداخلي قد تعزز أثناء تأملاته، كما أن الحفاوة التي قوبل بها من قبل الشباب وكثير من المتديّنين (إذا كان لنا أن نصدق رواية البيذق) (22) قد قوّت من عزيمته . ولعله أصبح مقتنعا بأن أناسا كثيرين كانوا في انتظار دعوته، وأنهم سيسيرون في خطاه أنّى قادهم .

---

(21) المراكشي : المعجب، ص 184 .

(22) هذه الحفاوة ثابتة في ملالة حيث التفّت حول مهدي المستقبل حلقة من الطلبة، وكذلك في تلمسان ووجدة ، وفي الطريق بين تازة وفاس، وفي فاس ذاتها حيث يذكر البيذق أسماء أربعة عشر طالبا من الملازمين له، وفي مكناس حيث يذكر أسماء أحد عشر طالبا، وفي سلا كان أحد القضاة من بين من حضروا دورسه .

وأخيرا وصل إلى مدينة مراكش حيث اصطدم متعمّداً برجال الدولة الرسميين، وبالسلطان المرابطي نفسه، فقد أنّب السلطانَ علناً .

يقول البيذق (23) : « ولما دخل مراكش، نزل بها بمسجد صومعة الطوب، فمكثنا بها إلى يوم الجمعة . ثم أقبل إلى جامع علي بن يوسف فوجد علي بن يوسف (السلطان المرابطي) قاعدا على غفارة ابن تيزمت (24) . والوزراء واقفون . فقال له الوزراء : ودّ الخلافة على الأمير . فقال لهم : وأين الأمير، إنما أرى جواري منقّبات . فلما سمع ذلك علي ابن يوسف، حطّ النقاب عن وجهه وقال لهم : صدق . فلما رآه المعصوم قال له : الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف . ثم قال له المعصوم : يا علي، قم عن هذه المغيّرة تكن إمام عدل، ولا تقعد على هذه الغفارة المغيّرة . فأزالها وأعطاها لمولاها، وقال له : ماتغيُّرُها، قال له : لأنها تُعقد بالنجاسة. »

وأراد علي بن يوسف وقد تأثر بهذا الرجل غير العادي، أن يحصل على مزيد من المعلومات عنه، فأعد مناظرة بينه وبين بعض الفقهاء المرابطين، ومن بينهم مالك بن وُهَيْب، وهو عالم أندلسي ولد في إشبيلية . وفي أثناء المناظرة، ظهر ابن تومرت على خصومه وأفحمهم . وقد اغتاظ ابن وُهَيْب كثيرا نتيجة لذلك، وألحّ على السلطان بثقافه . وكان علي يوشك أن يأمر بذلك لولا تدخل إثنين من وجوه المرابطين – أما لماذا تدخلا، فلا أحد من المؤرخين يفسر ذلك – ونجحا في تبديل العقوبة إلى التغريب عن المدينة. ثم أقام ابن تومرت في جبّانة مدّعياً أنه لم يَعدْ في أرض السلطان، وإنما في أرض الموتى . إلا أنه حتى أولئك الذين كانوا قد شفعوا له طلبوا إليه أن لا يتمادى في استهزائه بسلطة الأمير، وعندئذ أخذ في التوجه نحو سلسلة جبال الأطلس (25) .

---

(23) البيذق : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ، ص 67 - 68.
(24) لعل هذا الرجل كان أحد المعاونين المقربين للسلطان، ولكننا لا نعرف عنه شيئا أكثر من ذلك .
(25) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 68 - 69 .

وفي نحو هذا الوقت اتضحت أفكار ابن تومرت، فقد أراد من المرابطين أن يسلكوا مسلكه في تصوُّره للشريعة الإسلامية . أما إذا لم يوافقوا على اتباع نصيحته، فإنه سوف ينهض لمقاومتهم - ولكن كيف ؟ لعله لم تكن لديه فكرة محددة حول هذه النقطة، ولكن من المعلومات التي كان قد جمعها في رحلته، يُحتمل أن يكون قد خُيِّل إليه أنه قد يعتمد على قبائل مصمودة في جبال الأطلس الأعلى . إلا أنه كان عليه قبل أن يرسم خطة لذلك، أن يستطلع مشاعر هذه الجماعات القبلية . ولذلك، فإنه حالما شعر بأنه لم يعُدْ بمأمن على حياته في مدينة مراكش، قصد جبال الأطلس، وجابها شهورا جاذبا إليه أتباعا عديدين، بما فيهم أبو حفص عمر إنْتي الذي قُدِّر له أن يقوم بدور مهم جدا في إنشاء إمبراطورية الموحدين (26) . إلا أنه يبدو أن من انضموا إليه بادىء الأمر لم يكونوا إلا أفرادا قلائل فقط، ولم تتبع أي من القبائل تعاليمه، ولذلك فإنه أدرك بأن الوقت لم يَحِنْ بعد للشروع في ثورته على المرابطين . وبالتالي، فإنه استقر في مسقط رأسه اجيليز (انظر أسفله) وأخذ في إيفاد الرسل إلى قبائل مصمودة للإعداد لما اختمر وقتها في ذهنه، ألا وهو إسقاط إمبراطورية المرابطين . ومع ذلك، فإن المرابطين لم يكن في وسعهم تقبل تعاليمه وإصلاح معتقداتهم وأعرافهم لتتفق مع عقيدته .

أكد ابن تومرت في دعوته تأكيدا قويا على النظرية الإسلامية بشأن المهدي، أي النظرية القائلة : إن رجلا سيُرسله الله تعالى إلى الأرض قبل قيام الساعة لتوحيد بني البشر في ظل الإسلام، وللإعداد لمصيرها النهائي . ونتيجة لوعظه، نادى به أتباعه الأوائل مَهْدِيًّا حوالي نهاية عام 515 هـ /1121 م، ثم قبلت به فيما بعد بعض قبائل البربر في جنوب المغرب الأقصى . ويروي لنا مؤرخ من القرن الثامن الهجري / الرابع

---

(26) عن رحلته هذه عبر سلسلة الأطلس من قرب مدينة مراكش إلى المحيط، انظر البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 70 - 72 .
(IGILLIZ)

عشر الميلادي، اعتمد على مصادر سابقة، ما حدث كالآتي :

« ولما كان بالسوس الأقصى .. قام فيها خطيبا وقال : الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاؤه، لا رادّ لأمره ولا معقِّب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جَوْرا وظلما . يبعثه الله إلى نسخ الباطل بالحق، وأن يلي مكان الجَوْر العدل . والمغرب الأقصى منبته، وزمانه آخر الزمان ... » .

«سمعت الخليفة عبد المؤمن يقول : لما فرغ الإمام المهدي من كلامه هذا، بادر إليه عشرة رجال من أتباعه الملازمين له، كنت أنا واحدا منهم، فقلنا له : ياسيدي، هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي. فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكونوا يدا واحدة على القتال والدفاع . فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خروب، وتتابع البربر بعد ذلك عليه بالمبايعة على أن يقاتلوا عنه، ويبذلوا أنفسهم دونه . فعرّفهم بما في ذلك من الأرزاء والمحن والقتل والفتن، فالتزموا ذلك .. وسمى أصحابه إثر بيعته بالمهدية » (27) .

وفي نفس الوقت الذي حظي فيه ابن تومرت بإكبار البربر عن طريق المهدية، لبعض مبادىء العقيدة والتقريع ذات الطابع الخلقي، فإنه أثر أيضا فيهم من الداخل . والآن وقد عاد إلى موطنه، فإنه كان يدرك جيدا ما فيه من مواطن ضعف حاول معالجتها، كما كان يعرف كذلك ما فيه من تعقيدات وحساسيات ودوافع خفية . وكما يذكر المؤرخون كلهم تقريبا، فإنه لم ينس لسان قومه بل استعمله بإتقان . ولم يكن يخفى عليه سر من أسرار قبيلته هرغة أو القبائل المجاورة، كما أن أعماله فيما بعد تدل على أنه لم يواجه صعوبة في معرفة وإدراك الوضع السائد بين قبائل جبال

---

(27) الحلل الموشية، انظر في موضعه، ص 87 - 88 .

الأطلس الأعلى، مع أنه لم يسبق له أن عاش هناك، وهذا يدل على الوحدة الأساسية لقبائل مصمودة .

إننا لا نرغب في التقليل من قدرة عقيدة ابن تومرت على التأثير على تفكير أعداد كبيرة من الناس، فقد كان أثرها كبيرا، وبالتأكيد فإنها قامت بدور مهم في ما أحرزه من نجاح متزايد. إلا أن الداعية كان كذلك من أبناء البلاد، واستطاع بمعرفته الوثيقة للوضع والسكان، وحذقه فضلا عن ذهنه المدبر للمكائد، أن يستغل أي وضع، وخصوصا الوضع المحلي، بقصد إقحام نفسه لينال الحظوة لدى مواطنية . إن من أبرز الصفات التي كان يتحلى بها ابن تومرت قدرته على أن يجمع بصورة مقنعة المعلومات العقديّة التي اكتسبها في المشرق، ومثالية الإصلاح الديني الذي قام به، والذي كرس نفسه له، وفهمه العميق للبلاد التي ولد فيها .

سمع المرابطون عن دعوته ونجاحها بين البربر فحاولوا استئصال هذه الحركة الدينية والسياسية الجديدة، وأرسلوا جنودا إلى إجيليز . وفي كل مرة كان ابن تومرت يفلت من الجيش المرابطي، في آخر لحظة أحيانا بمعاونة عدد متزايد من رؤساء البربر، وكان من بينهم أبو حفص عمر إنتي. بيد أنه سرعان ما قرر بأنه ليس في مأمن في إجيليز، فقصد، في عام 518 هـ / 1124 م، على مايحتمل، مكانا يسمى تنمل (Tinmel) أو تينملال (Tinmallal) في قلب جبال الأطلس الأعلى في أعالي وادي نفيس .

وهناك شهدت حركة الموحدين بحق تطورها الكامل على يد ابن تومرت وطلبته، مع أن هؤلاء كانوا مجرد أدوات في يدي المعلم الذي كان الروح الموحية للجماعة الجديدة . وتنمل ضيعة صغيرة في واد ضيّق كانت تتلاقى فيه ضياع صغيرة أخرى، وكانت تسكن تنمل قبائل من مصمودة، وكانت الجماعة الدينية الجديدة في مأمن تام هناك . وفي الحقيقة فإن المرابطين لم يفرضوا سلطانهم قط على تلك الناحية، لأن جنودهم ومعظمهم من الفرسان، لم يشعروا بالراحة في بلاد جبلية كتلك، وفضلا

عن ذلك فإنه كان من السهل جدا على البربر أن يغلقوا المسالك الجبلية العالية والوعرة المؤدية إلى تنمل . وهكذا استقر ابن تومرت في معقل طبيعي منيع (28) وأصبح في مركز يمكّنه من نشر عقيدته بين قبائل البربر من حوله، ولذلك الغرض يبدو أنه جهز مجموعة من الدعاة الذين أوفدوا إلى القبائل النائية في الجبال (29) وأخذوا في وعظ الأهالي بلسان البربر .

ولكن ما الذي يمكننا قوله عن عقيدة ابن تومرت ؟ (30) إن أفكاره الدينية معروفة لدينا عن طريق تواليف نُسبتْ إليه وجمعت في مخطوط يرجع تاريخه إلى أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وقد نشر هذا المخطوط في سنة 1903م باحث فرنسي من الجزائر جان-دومنيك لوسياني بعنوان : كتاب ابن تومرت (انظر اسفله) . إن المميزات الرئيسية لتلك العقيدة، إذا جاز لنا أن نعبر عن رأينا بصراحة، لا تتصف بالأصالة إطلاقا. فصاحب المصنّف يعلن باستمرار وحدة الله تعالى وعدم اتصافه بالصفات الجسمانية، مع الضرورة المطلقة للامتثال لأوامره . إنما الشيء الأصيل في هذا ليس الأفكار ذاتها بل الرغبة في تطهير العقيدة الإسلامية مما أفسده الزمان، وتحقيق ذلك عن طريق المصادر الصحيحة الوحيدة، ألا وهي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . وفي الوقت ذاته، عرضت على المسلمين بعض المبادئ الفقهية على الأقل . ولو لم يحاول تلقين عامة الناس في المغرب الأقصى الفقه الإسلامي، وهي فكرة أشعرية، ولو لم تظهر فكرة المهدي ، لصعب على

---

(28) عن وصف لتنمل، انظر هنري باسي وهنري تراس : رباطات ومعاقل الموحدين باريس 1932 ، ص 1 - 8 .

(29) المراكشي : المعجب، ص 187 .

(30) حول عقيدة ابن تومرت، انظر أي . جولدزيهر : كتاب المهدي بن تومرت . وكذلك المقالة بعنوان (MATERIALIEN ZUR KENNTNISS DER ALMOHADEN BEWEGNNG) في (ZDMG) العدد 41 (1887) ومقدمة (كتاب المهدي بن تومرت)، انظر في موضعه، ص 1 - 102 .
(LIVRE D'IBN TUMART)

المرء أن يدرك السبب الذي من أجله اعتبر ابن تومرت خارجيا أو مارقا من قبل الكثيرين من معاصريه (31) . إن فكرة المهدي فكرة سُنِّيَّة في حد ذاتها، أما ما هو غير سنّي – بل هو فكرة شيعية – فهو القول بأن المهدي إمام معصوم، وهذه إحدى المبادئ الأساسية في تعاليم ابن تومرت .

وحينما نقرأ (كتاب ابن تومرت)، وفيه عرض للآراء بصورة متفرقة وبأسلوب عقيم مطروق، لا يسعنا إلا أن نعجب لنجاح ابن تومرت بين مواطنيه، ونحن مقتنعون بأن قوة إقناع خارقة لابد أنها صدرت عنه حينما كان يتكلم . إن بلاغته كانت حقا قادرة على إثارة نفوس مستمعيه من البربر البسطاء . وفضلا عن ذلك، فإن المؤرخين يصفونه بأنه خطيب مُفوّه، ويقولون أنه كان بليغا بالعربية والبربرية على حد سواء .

إلا أن قدرته على الإقناع لم تكن فقط نتيجة لبلاغة فعالة وعقيدة صارمة لقيت قبولا لدى البربر . فمناوأته للمرابطين كانت عاملا مهما في نجاحه . فقد اعتبرهم مجسِّمين، أي أنهم في نظر الفقهاء المسلمين يتهمون بارتكاب أعظم إثم يمكن للإنسان أن يقترفه، ودعا علنا إلى القيام عليهم . ويبدو بوضوح أن عقيدة المهدي الدينية لقيت استجابة سريعة بين البربر الجفاة الخشنين، إلا أن دعوته للثورة على المرابطين كانت بالتأكيد أكثر أسلحته فعالية بين المصامدة . ففي بادىء الأمر على الأقل، يبدو أن دعوة ابن تومرت لقيت صدى لدى سكان جبال الأطلس لأنها كانت ذات جانب سياسي وكانت معادية للسلطة المركزية التي كانت دائما موضع استياء من قبل البربر.

كما أن للمرء أن يفترض أن شيئا من العداء العرقي كان يفصل مصمودة عن صنهاجة، أو، حسب تقليد قِديم قِدَم الإنسان أن الموحدين

---

(31) حتى في المشرق اعتبر ابن تومرت خارجيا . انظر حول هذه النقطة مقال ف. جابرييلي بعنوان : "أصل حركة الموحدين في مصدر تاريخي مشرقي ، مجلة (ARABICA) العدد 3 (1956)، ص 1 - 7 .

من سكان الجبال كانوا يحملون في صدورهم الإزدراء الشديد، المقرون بالغيرة. لسكان البسائط أو الأراضي السهلية، بما فيهم المرابطون من أهل الصحراء سابقا .

ولم يدْعُ ابن تومرت إلى عقيدة فحسب، بل حاول أيضا أن ينظم جماعة جديدة في تينمل وما حولها، وفي ذلك يكمن ما لحركة الموحدين من أصالة واستهواء . وكان من بين الصعوبات الكبيرة التي واجهت ابن تومرت أن مجتمع البربر في جبال الأطلس الأعلى كان منقسما إلى وحدات صغيرة جدا تقوم بين الواحدة والأخرى خصومات قديمة مستعصية. وقد لجأ المهدي الذي كان يعرف مجتمع البربر معرفة جيدة، إلى وسيلتين لتحقيق الوحدة التي كان يحلم بها : فقد احتفظ بالبيئة الاجتماعية التقليدية التي لم يكن ليتسنى تحقيق شيء بدونها، إلا أنه استطاع أن يستحدث نظاما دقيقا للطبقات بين الفئات المختلفة في ذلك المجتمع، نظرا لسلطته المعصومة بوصفه المهدي . وعن طريق هذا النظام، قصد أن يخفف من حدة الخصومات التقليدية . وبالإضافة إلى ذلك، فإنه أقام جنبا إلى جنب مع نظام الطبقات العرقي نوعا من النظام الفني للطبقات، بغرض فرض التعاون بين الأفراد الوافدين من القبائل المختلفة، وهم أفراد ما كانوا ليعملوا معا حتى ذلك الوقت .

لقد اهتم بدراسة موضوع نظام طبقات الموحدين بعض الباحثين الغربيين، وحُقّ لهم ذلك، إذ يمكن اعتباره نوعا من واسطة العقد لحركة الإصلاح الموحدية، ولعله الفكرة العبقرية الحقيقية التي أظهرها ابن تومرت .

وبدلا من أن يكتفي ابن تومرت بالنفوذ الشخصي الذي كان قد استطاع أن يفوز به كمهدي معصوم، نجح كذلك في أن يقيم في مجتمعه البربري الصغير ما يمكن تسميته بنظم جديدة. وقد بقيت هذه النظم بعد وفاته، وكانت ما تزال قادرة على البقاء حينما تسلم عبد المؤمن مهام السلطة .

ولسوء الحظ، فإن هذه القضية لم يتم توضيحها تماما بعد، حتى بعد الدراسات المسهبة التي تمت في الموضوع، كتلك التي قام بها أمبروسيو هويثي ميراندا (32) و ج. ف. ب. هوبكنز (33) . وفي الحقيقة، فإن أقدم ثلاثة مصنِّفين تناولوا بالذكر طبقات ابن تومرت - وهم صاحب (كتاب الأنساب) (34) وابن القطان (35) والمراكشي (36) - يوردون روايات متناقضة، وهي إجمالا ليست واضحة كل الوضوح. إلا أنه يبدو أن تغييرات عميقة أُدخلتْ على نظام الطبقات في المدة مابين فترة ابن تومرت ونهاية حكم عبد المؤمن، ولا نعلم ذلك من الوثائق بل نستمده منها عن طريق الحدْس والتخمين . ولذلك، فإنه ليس من السهل إعطاء صورة دقيقة أو كافية عن الجهود التي بذلها ابن تومرت لإعادة التنظيم، ولكن المرء لا يستطيع أن ينفي النتيجة النهائية .

ويتفق الجميع على شيء واحد، وهو أن المهدي صنَّف الموحدين في طبقات تختلف عن المجموعات القبلية التقليدية . ولا يعني ذلك أنه قضى على القبائل، لأن محاولةً من هذا القبيل كانت - فيما يُحتمل - ستكون غير مجدية في ذلك الوقت، بل يبدو أنه حاول إنقاص تأثير المجموعات القبلية بأن أقام فوقها أشكالا تنظيمية أخرى كانت تتمشّى في بعض جوانبها مع الأنماط البربرية، وكانت لها بالتالي إمكانية التقبل والسماح لها بالترسخ.

---

(32) هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، الجزء الأول، انظر في موضعه، ص 100 - 105 .

(33) ج. ف. ب. هوبكنز : النُظُم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع - المدارس - الدار البيضاء، 1998 ، الفصل الخاص بطبقات الموحدين .

(34) ليفي - بروفنسال : وثائق لم تنشر عن تاريخ الموحدين، ص 29 ، 32 - 48 .

(35) ليفي - بروفنسال : ست قطع لم تنشر ... انظر في موضعه 2 ، ص 340 - 343.

(36) المراكشي : المعجب، انظر في موضعه، ص 188، 341 - 343. أما المصادر الأخرى عن تنظيم الموحدين، فإنها لا تفعل أكثر من إعادة اقتباس واحدة أو أكثر من هذه الوثائق .

ومجلس أو أهل الخمسين هو خير دليل على ذلك : فقد شُكِّلت جمعية تضم نحو خمسين عضوا يمثلون ما يمكن تسميته بالقبائل المؤسِّسة لحركة الموحدين، وهي بعبارة أخرى تلك القبائل التي ساندت المهدي بُعيْدَ استقراره في تنمل . وكان من حق جماعتين أن يكون لهما ممثلون أكثر من غيرهما، وهما قبيلة هرغة، وهي قبيلة المهدي وفيها بدأ حركته، وكذلك "أهل تنمل" الذين رحبوا به حينما لجأ إليهم . ومما يجدر ذكره أن "أهل تنمل" لم يضموا أسرا متجانسة، بل كانوا يضمون عددا كبيرا من الأغراب الذين انتسبوا للحركة . إن مثل هذا المجلس يتفق مع التقليد البربري أيْت أربعين (أبناء الأربعين) من ناحية حجمه ودوره السياسي وتمثيله النسبي لمختلف العناصر، إلا أنه تجاوزالإطار المعتاد لجمعيات البربر، لأنه وحد عناصر كثيرا ما كانت تعارض بعضها البعض في الماضي، فضلا عن إدخال "الغرباء" المقيمين في تنمل في الحركة أو آخرين يطلق عليهم ابن القطان هذه التسمية (37) .

وبالإضافة إلى ذلك، أنشئت طبقتان لم تكن لهما صلة بالنظم التقليدية للمصامدة، وهما (أهل الدار)، وهي شبيهة بمجلس خاص كان يعمل بالتعاون مع البيت المالك، و (العشرة) وهم الأتباع الأصليون الذين انضموا إلى ابن تومرت أثناء إقامته بالمغرب قبل أن يستقر في اجيليز. وثابت من الرواية المأثورة أن (العشرة) كانوا أول من اعترف به مهديا، وكان من بينهم الرجال البارزون في الحركة، وخصوصا عبد المؤمن وأبو حفص عمر إنتي والبشير الونشريسي .

إن معلوماتنا، والحق يقال، حسنة نسبيا عن تلك الطبقات الثلاث، بحيث نستطيع أن نرى بوضوح كاف ما كانت تمثله بالفعل، كما أن معلوماتنا كافية عن تسلسل القبائل للتمييز، وأيضا للقتال على ما يحتمل، إلا أن علينا الإعتراف بأننا لا نعرف أكثر من أسماء الأصناف الأخرى في طبقات

---

(37) ابن القطان : نَظْمُ الجُمان، انظر في موضعه، ص 85 .

الموحدين، المحتسبون والمزاور والغزاة وأهل الحزب الخ ... وقد درس هوبكنز بكل عناية مختلف المعلومات التي وصلتنا عن تلك الأصناف وحاول أن يوضح ما تُخفيه أسماؤها، إلا أنه لم يحالفه التوفيقُ دائما كما يعترف هو بنفسه، لأن المعلومات المتوفرة من الغموض والتناقض بحيث لا تسمح بأي تأكيد حول مكان هذه الأصناف في نظام الطبقات .

ويمكن القول مع ذلك بأن المشاغل العسكرية لعبت دورا كبيرا في استكمال المبادىء التي استرشد بها ابن تومرت، كما أكد ذلك روبرت مونتان (38) . إن هذا يتضح من المدلولات العسكرية للكلمات (غزاة)، (طبّالة)، (رماة) و (جند) .

وفضلا عن ذلك، فإن ابن تومرت قرر شخصيا تدريب جماعة أخرى من الشبان تم اختيارهم على أساس مقدرتهم غير العادية، واهتماماتهم الفكرية السابقة، الطلبة والحُفّاظ، وتبين الكلمتان المستعملتان لهذين الصنفين مكانتهما في الحركة . وتدل الرسائل الرسمية الموحدية التي كثيرا ما كانت توجه إلى الشيوخ والطلبة في مدينة أو ناحية، على أن عبد المؤمن كان يولي أولئك الرجال أهمية بالغة . وتبين لنا فقرة في كتاب (الحلل الموشية) (39) اهتمام عبد المؤمن بتنظيم الحفاظ - وعددهم 3000 حافظ - في شبه مدرسة لكبار الموظفين أو مدرسة للإدارة بموجب نظام لم يكن في أغلب الظن معروفا في ذلك الوقت .

ومهما بقيت تفاصيل التنظيم الذي أقامه ابن تومرت غامضة، فمن المؤكد أنه في إعادة التنظيم هذا، قد حاول التقليل من تأثير الإطار القبلي التقليدي إن لم يحاول القضاء عليه كلية . ومن المؤكد أنه لم تخطر بباله التطورات الهائلة التي قدّر لها أن تحدث في إمبراطورية الموحدين فيما

---

(38) مونتان : البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى، انظر في موضعه، ص 63

(39) الحلل الموشية : انظر في موضعه، ص 125 .

بعد. والحق يقال، إن نظام طبقاته لم يكيف لكيان سياسي واسع من هذا القبيل، بل كان قد كُيِّف فقط لجماعة من قبائل البربر في جبال الأطلس العالي . ومع ذلك، فمن المحتمل أن التطورات التالية قد سهلتها إلى حد كبير عملية إعادة التنظيم الأصلية، إذ إنها جعلت التعاون ممكنا بين قبائل ما كانت لتتعاون قط في ظل النظام السابق .

وفي تنمل، كرّس المهدي وأصحابه وقتهم لنشر العقيدة وتنظيم المجتمع الموحدي وقتال المرابطين. ولم يكن نشر العقيدة بالأمر الهين بالرغم من حسن نية معظم البربر، فقد كان هؤلاء الجبليون أُميِّين تماما، وقد اعتادوا – دون مساعدة الغير – حل الصعوبات التي تعترض حياتهم الشاقة، وكانوا يمارسون ديانة بسيطة جدا مليئة بالخرافات القديمة، وكانوا على غير استعداد لفهم رسالة المهدي، وكانت أذهانهم إجمالا غير قابلة للاستجابة للأفكار المجردة، فضلا عن أنهم لم يكونوا ملمِّين بالعربية لذلك فإن ابن تومرت وطلبته اضطروا لاستعمال اللسان البربري في مواعظهم .

كما اضطر المهدي إلى اللجوء إلى وسائل آلية لترسيخ بعض مبادئ العقيدة في أذهان أبسط الموحدين : فقد فرض على أهل تينمل تحت تهديد العقاب، أن يحفظوا عن ظهر قلب كل يوم سُوَراً جديدة من القرآن الكريم . إلا أن الروايات المتعلقة بتلك المسألة ينبغي أن تدرس بكل عناية لأن مصدرها كلها تقريبا أعداء أكيدون للموحدين، كالمؤرخ المشرقي ابن الأثير أو صاحب (روض القرطاس) الذي كان مؤيدا دائما للمرينيين، ولذلك فإن تلك الروايات معادية للموحدين .

ويبدو أن ابن تومرت اضطر إلى أن يأخذ بعين الإعتبار طبيعة مستمعية، وأن يستعمل لذلك وسائل تبتعد كثيرا عن الوسائل المعتادة التي يلجأ إليها الفقهاء والنخبة المثقفة . كما يبدو أنه استعمل، دون علمٍ منه، ما ندعوه في يومنا هذا أساليب الاتصال بالجماهير. وهكذا فإنه يُذْكر

أنه كان يطالب كل فرد في جماعة من البربر بأن يحفظ أولا كلمة أو كلمتين من آية قرآنية وكأنها اسمه . وكان هؤلاء الأفراد يصطفون بعد ذلك حسب نظام ورود الكلمات في الآية القرآنية، ويُطلبُ إليهم ذكر أسمائهم المفترضة على التوالي، وبذلك يكون الجميع في النهاية قد سمعوا الآية بنظامها الصحيح، ولما كانت هذه العملية تتكرر لعدة أيام على التوالي، فإن الأمر كان ينتهي بحفظهم لها عن ظهر قلب . وهكذا تدريجيا باستعماله أساليب تعين على سرعة الحفظ ومكيّفة حسب قدرات أهل الجبال من البربر، غرس ابن تومرت في نفوسهم معلومات أولية كانوا يجهلونها تماما قبل قيام حركته .

إن مؤرخين كابن الأثير وابن أبي زرع قد يهزؤون بمثل هذه الوسائل، وقد لا يرون فيها إلا ضرباً فجًا من الخداع، إلا أن الطريقة التي استعملها ابن تومرت تبدو حكيمة وفعالة في أعين مثقفي القرن العشرين، الذين لا يستطيعون التغاضي عن المشاكل المتصلة بأساليب إيصال المعلومات للجماهير. بل إن المرء قد يذهب حتى إلى القول بأن ابن تومرت يبدو مجددا حقا بالنسبة لهذه النقطة، كما هو الحال بالنسبة لنقاط كثيرة أخرى .

لقد اتُّهم ابن تومرت بالشعوذة من قبل خصومه، ولعله في بعض الأحيان لجأ إلى الحيل للتاثير على عقول البربر الساذجة، إلا أنه يبدو أنها لم تكن سوى حيلٍ صادرة عن حسن نية . إننا لا نقبل الرأي القائل بأن ابن تومرت كان دجالا ليس له من دافع سوى الطموح .

وفي الواقع، فإنه حتى خصومه يُقرُّون بان حياته كانت حياة تقشُّف تام، وبأنه لم يحاول قط أن ينشيء أسرة حاكمة : فهو لم يتزوج أبدا، ولم يكن له أبناء قط بل إنه لم ينصِّب أقرباءه في مناصب سامية. لقد كانت شقيقته زينب (40) بالتأكيد من أكثر أمناء سره نفوذا، إلا أنه ليس ثمة ما

(40) عن زينب شقيقة ابن تومرت، انظر ليفي - بروفنسال : وثائق لم تنشر، ص 30 ، 81.

يدل على أنها استغلت مركزها بأي شكل لتعزيز مصالحها الخاصة أو مصالح زوجها وابنها . أما شقيقاه عبد العزيز وعيسى، فإنهما كانا عضوين من أهل بيته لا أكثر . وإذا رأينا فيما بعد أن لهما دورا يقومان به وثارا مرتين على عبد المؤمن (41)، فإن ذلك كان بمبادرة منهما : فلا يذكر أي مؤرخ أن ابن تومرت كان قد وعدهما بأي شيء . لذلك فإن من المستحيل أن نكتشف في أعمال المهدي ما يدل على أنه كان شخصيا رجلا طموحا. إن من المؤكد أنه رغب في أن يقود جماعة الموحدين نحو مثله الأعلى، ولبلوغ ذلك الهدف كان لزاما عليه أن يوطِّد سلطته الشخصية . وفي رأينا أن هذا الموقف ناشئ عن أنه اعتبر أن الله تعالى اختاره بالتأكيد لتحقيق هذه الرسالة . وخلاصة القول، فإننا نعتقد أنه كان مقتنعا بأنه أداة في يد العناية الإلهية، وبأنه قبل من تلقاء نفسه رسالته الدينية التي كرّس لها جميع مواهبه، بما في ذلك فطنة طبيعية لا يمكن إنكارها .

إن إقامة نظام اجتماعي جديد فوق النظام القديم لم يتم دائما دون صعوبة، فبعض القبائل مثلا أبت أن تقبل النظام الجديد، وتولى المهدي إرغامها على الانضمام إلى الحركة. ويصف المؤرخون، وخصوصا البيذق(42) وابن القطان (43)، بعض الوقائع التي حدثت، ويمكن افتراض أنه جرت وقائع أخرى . وقد حاول ابن تومرت – الذي لم يكن مثاليا فحسب، بل كان أيضا خبيرا ماهرا في أساليب القتال – إستمالة مناوئيه في مجموعات صغيرة، ولذلك فمن المحتمل أن مناوشات طفيفة ضد قرى أو مجموعات صغيرة ضمن القبائل أغفل المؤرخون ذكرها، كانت أكثر المناوشات التي قام بها عددا . وعلى أية حال، فإن المرء يمكنه بالتأكيد أن يتحدث عن العمليات في المنطقة الجبلية حول تنمل على أنها عمليات فتح عسكرية. وقد تكللتْ هذه الحملة بالنجاح أثناء حياة المهدي بمساعدة القبائل الموالية،

---

(41) انظر الفصل الثاني .
(42) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 76 - 77.
(43) ابن القطان : نظم الجمان، ص 130 وما بعدها .

وهو ظفر تمّ لا ضد المرابطين الذين لم يكن لهم جنود أو معاقل في سلسلة جبال الأطلس، وإنما ضد قبائل البربر التي قاومت سلطة ابن تومرت .

وحتى بمساعدة القبائل الصديقة، فإن مهمة المهدي لم تكن هيّنة بأية حال، ولم يُكتبْ لدعوته أبدا الظفر النهائي، ذلك لأن الفردية القوية بين أهل الجبال كانت دوما تتحدى سلطته . ويتفق جميع المؤرخين تقريبا، المؤيدون منهم للموحدين والمعارضون لهم على حد سواء، على أنه في ختام حياة ابن تومرت في شتاء عام 534 هـ /1129-1130 م، قرر أن يعالج نهائيا حالة عدم الاستقرار بين القبائل بالقيام بعملية تطهير خطيرة . وقد عهد بهذه المهمة إلى البشير الونشريسي، وهو أول رفاقه وأشدهم ولاء (44) . ويسمّي كل المؤرخين العملية بالتمييز، وكانت تشمل مبدأين : إعادة تنظيم أو تأكيد نظام القتال لقبائل الموحدين، واستئصالا داميا لعدد كبير من المخالفين، أو ممن كان حماسهم فاترا نحو الدعوة .

ويحتمل أن تكون الرواية التالية التي أوردها البيذق (45) رواية مُخَفّفة ودون ما تم فعلا . ويلاحظ أن المؤلف لا يورد وصفا للضحايا، ولعل السبب هو كثرة أعدادهم، كما أنه تردد في إعطاء تفاصيل عن أعمال القتل الجماعي، وهي أعمال لم يعلن عنها المهدي بالتأكيد : « ثم أقام أياما عدة، فأكرم الله المهدي بدعوة البشير، فأمر بالتمييز . فكان البشير يُخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب. ورأى الناس الحق عيانا، وازداد الذين آمنوا إيمانا .. وكان تمييز البشير للخلق من يوم الخميس إلى يوم الجمعة بعد أربعين يوما . فمات يومئذ من الناس خمس قبائل ... » ثم يورد المؤلف أسماء القبائل التي صُفيّتْ وأسماء الأماكن التي تم فيها ذلك .

وإلى جانب هيبة المهدي الشخصية، فإن هذه الإجراءات التعسفية يبدو

---

(44) حول هذا التطهير، انظر ليفي- بروفنسال : وثائق لم تنشر، ص 35 - 37.

(45) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 78 .

أنها بدلا من أن تهدد جماعة الموحدين، فإنها عزّزت من تماسكها .

ومن الواضح أن المهدي نفسه اعتقد أن قوته ازدادت، إذ قرر في ربيع عام 525 هـ /1130 م أن يهاجم مدينة مراكش عاصمة المرابطين . وكان قد اكتفى قبل ذلك بصد هجماتهم التي لم تتغلغل قط مسافة بعيدة داخل جبال الأطلس المعادية لهم . أما السبب في تجنب المرابطين المبادأة بالهجوم، فيرجع إلى طبيعة تكوين جيشهم الذي كان معظمه من الفرسان . ولما كانت أودية جبال الأطلس هي في معظمها ضيقة وغير مستوية دائما تقريبا، فإنها لم تكن أرضا صالحة لمناورات الفرسان. وكان من السهل سدّ الشعاب في الجبل، وحتى لو بقيت مفتوحة، فإن ذلك كان لا يسمح للفرسان إلا بالتقدم ببطء مما يعرضهم لمزيد من المخاطر. وقد جرت محاولات لدخول الجبال، إلا أنها انتهت بفشل ذريع (46) ، وبالتالي فإن المرابطين سرعان ماتخلوا عن وسيلة غير مجدية، بل إنها كانت على العكس من ذلك باهظة التكاليف في الأرواح والعتاد الحربي .

ثم إنهم حاولوا إبقاء المنافذ المؤدية إلى السهل مغلقة ببناء معاقل عند مداخل الأودية الرئيسية لجبال الأطلس في الشمال، وأشهرها المعقل الكائن في تَسْغيموت الذي ما زال جانب مهم من أطلاله قائما (47). ولأسباب نفسانية وعملية، لم يقبل ابن تومرت الإهانة بأن يظل مطوّقا في جباله، إذ إن التجارة بين أهل الجبال وبين القبائل في السهول كانت أحد المظاهر الرئيسية للحياة الاقتصادية في الجبال، ولا يمكن قطعها زمنا طويلا . ومن ناحية أخرى، وبسبب المعارضة التي ظلت تؤدي بالقبائل للثورة ضد زعامة المهدي في الجبال، وهي المعارضة التي لم يُقْض عليها قضاء مبرما

(46) المصدر نفسه ، ص 74 - 75 .

(47) درس معقل تسغيموت هنري باسيه وهنري تراس في مقالهما بعنوان " رباطات ومعاقل الموحدين " في مجلة (هسبريس)، العدد 7 (1927)، ص 157 - 171. كما تناوله بالدراسة شارل ألين وجاك مونييه في مقال بعنوان " أبحاث أثرية عن تسغيموت" في مجلة (هسبريس)، العدد 38 (1951)، ص 381 - 405 .

بالتطهير الذي قام به البشير، فإن المهدي على ما يحتمل شعر بأن عليه أن يعمل شيئا ليصرف اهتمام القبائل إلى الخارج – وهي وسيلة معروفة في مثل هذه الظروف – وليؤكد لأعدائه أنه بلغ من القوة والجرأة درجة تمكّنه من انتزاع السلطة من أيدي المرابطين . لذلك فإنه جهز حملة عسكرية قوية ضد مدينة مراكش . ولعل الموحدين كانوا في منعة عمليا في جبالهم، إلا أنهم لم يعتادوا القتال في العراء . ومع ذلك، فإنهم أحرزوا نجاحا مبدئيا عند حافة الجبال، وقد شجعهم ذلك على التقدم نحو مدينة مراكش ومحاصرتها . وإذ فوجىء المرابطون بذلك، احتموا داخل عاصمتهم المسوّرة، وقصروا جهودهم على مقاومة تغلغل الموحدين . إلا أنه بعد ذلك بقليل، تلقى السلطان المرابطي تعزيزات من عدة أماكن في المغرب الأقصى، فأمرها بالهجوم . وجرت وقعة تحت أسوار مدينة مراكش في مكان يسمى البحيرة، وكان ذلك على ما يحتمل في 2 جمادى الثانية 524 هـ/ 13 مايو 1130م (48). وفي هذه المعركة تمتّع فرسان المرابطين بحرية الحركة، ومن المحتمل أن الموحدين كانوا أقل عددا. وعلى أية حال، فإن المعركة أسفرت عن هزيمة شنيعة مني بها أنصار المهدي الذين لم يكن أمامهم من سبيل للنجاة سوى الفرار بسرعة صوب جبال الأطلس، مخلِّفين وراءهم في ساحة القتال عددا كبيرا من القتلى، من بينهم البشير . وأصيب عبد المؤمن وأبو حفص عمر إنتي بجروح، إلا أنهما تمكنا من النجاة .

وقد ظل المهدي هادئا حينما علم بهذه الهزيمة، ولم تتزعزع ثقة جماعة الموحدين بشكل ملحوظ نتيجة لهذه الضربة المفزعة، مما يدل على أن تأثير ابن تومرت كان بالفعل عميقا جدا .

إلا أنهم كانوا على وشك اجتياز اختبار صعب : فقد اعتلّ ابن تومرت وتوفي بعد وقعة البحيرة ببضعة شهور. إن التاريخ المتفق عليه إجمالا

---

(48) حول وقعة البحيرة، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، انظر في موضعه، الجزء الأول، ص 8 - 84 . كذلك جاستون ديفيردون : مراكش منذ تأسيسها حتى اليوم، الجزء الأول، ص 155 - 157 .

لوفاته هو 5 أو 6 رمضان 524 هـ /13 أو 14 أغسطس 1130م. وفضلا عن ذلك، فالمتفق عليه إجمالا هو أن المهدي توفي في ظروف غامضة، اقتضت أن لا يعلم أحد بوفاته لبعض الوقت، باستثناء خمسة رجال كان من بينهم عبد المؤمن (49) . وقد قرروا كَتْمَ خبر الوفاة والسلوك وكأن المهدي، على الرغم من مرضه وملازمته الفراش، كان سليما معافى، وما زال يُصدر الأوامر ويقود الجماعة. وانقضت سنتان أو ثلاثة سنوات قبل إعلان نبإ الوفاة، وتسمية عبد المؤمن خلفا له . ويبدو جليا أن زعماء الموحدين بُهتوا لوفاة المهدي المباغتة، فكتموا الخبر طيلة الوقت اللازم للاتفاق على من يخلفه . ومع أن هذا افتراض يمكن قبوله، فمن الغريب مع ذلك أن يُسمح لهذا الوضع غير العادي بالاستمرار فترة طويلة . إن البيذق يقول جازما إن المهدي كان "مريضا " ثلاثة أعوام (50)، أما ابن القطان، الذي بَدِل نصه، والمراكشي فإنهما لا يذكران فترة كان منصب الإمامة فيها شاغرا، وليس ثمة من أمل الآن في الحصول على إجابة عن السؤال الخاص بموضوع شغورها .

ومهما يكن من أمر، فإن ابن تومرت ترك عمله دون أن يكمله، ولعله لم يبدأ به - إذ إنه أخفق في غرضه الرئيسي - ولم يتحقق له النجاح في الإطاحة بدولة المرابطين . ومع ذلك، ومع عدم تمكنه من تحقيق هذا النصر، فإنه كان قد صنع أداة النصر . فبدلا من تلك القبائل الصغيرة التي تسودها الفوضى والتي كانت تعيش في منطقة جبال الأطلس قبل زمنه، ترك في تلك المنطقة جماعة من نوع جديد تماما، كانت - على الرغم من حداثة عهدها وغضاضتها - من القوة بحيث تقوى على البقاء بعد كارثة الهجوم على مدينة مراكش، وبعد وفاة المؤسِّس . إن هذه الجماعة الموحدية كانت في عام 524 هـ /1130 م، ما تزال جماعة بربرية خالصة، لأن ابن تومرت كان قد

---

(49) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 81 .

(50) المصدر نفسه، ص 81 .

احتفظ بعدد من النظم البربرية الصرفة، كجمعيات الحكم، كما احتفظ بالعرف الخاص بهيبة كل قبيلة إلخ ... إلا أن جماعة تنمل لم تكن مجرد جماعة بربرية، بل إنها كانت أوسع من ذلك وشيئا مختلفا : لقد كانت جمعية دينية مبدأها الوحدة، وكان العنصر الرابط لها موهبة المهدي وشخصيته العظيمتين . وبكل تأكيد، فإن الإسلام الصارم والمتقشف الذي دعا إليه ابن تومرت كان قد عمل الشيء الكثير لتوحيد قبائل البربر في جبال الأطلس الأعلى، وللمرء أن يتساءل ما إذا لم تكن سطوة المهدي وطاقته حتى أكثر تأثيرا في بلوغ هذه النتيجة . وبودنا أن نحصل على تفاصيل أكثر دقة وحيوية وواقعية عن هذا الرجل غير العادي : فقد كان زاهدا دون أن يكون صوفيا بحال، وكان رجلا بليغا دون أن يكون خطيبا رسميا، وكان حادا دقيقا فاتنا بالتأكيد لا ينثني في أوامره، ولكنه كان أيضا رؤوفا، بحيث ألهم أهل الجبال الذين اعتادوا على خشونة الحياة وشظف العيش .

عند «وفاة» ابن تومرت، لم تكن وحدة الموحدين مكتملة شاملة، إذ إنها انحصرت في بعض الأودية وفي بعض القبائل في منطقة جبال الأطلس . غير أن البذرة كانت مليئة بالحيوية والإمكانيات . فما إن انقضت بعض السنين حتى نمت نموا سريعا بحيث امتدت رقعة إمبراطورية الموحدين آخر الأمر واتسع نطاقها فشملت الشمال الإفريقي بأسره . وما كان ليتسنى ذلك لولا الجماعة الجديدة التي أنشأها ابن تومرت في تنمل .

وقبل القيام بدراسة تحليلية لإمبراطورية الموحدين، فإنه من المستحسن أن ننظر إلى الوراء وأن نحاول فَهْمَ حالة جماعة الموحدين حينما اختفى مؤسسها .

ليس من شك إطلاقا في أن شخصية ابن تومرت وصفاته ومواهبه وشعوره بالمسؤولية للدعوة كانت بالغة الأهمية في مولد الحركة . إن الكثيرين جدا من المؤرخين المحدثين يغفلون دور الأفراد في تطور المجتمعات، ولا يأخذون بعين الاعتبار إلا أعمال الجماعات أو الأوضاع

الاقتصادية والاجتماعية . ولا يعترض أحد اليوم على أن تلك العوامل ينبغي تلقائيا أن تؤخذ بعين الإعتبار عند دراسة الماضي، إلا أن ذلك لا يستلزم بالتالي أن يُقلِّل من دور بعض الأفراد فلا يعدو مجرد رمز . ويبدو أن سيرة ابن تومرت تشتمل في مضمونها على معانٍ مهمة في هذا الشأن .

صحيح أنه حينما ظهر ابن تومرت على مسرح المغرب الأقصى لم تكن بعض قبائل البربر راضية تماما عن نظام حكم المرابطين، غير أن ذلك كان - بصورة رئيسية - عبارة عن حالة غامضة من الشعور بالضيق لم تتخذ أبدا - حتى ذلك الوقت، في حد علمنا - شكل ثورة علنية . ويميل المرء إلى الشعور بأنه بدون تأثير ابن تومرت كان من الممكن أن يستمر الوضع مدة أطول كثيرا، ذلك لأن عبء إمبراطورية المرابطين لم يكن عبئا تنوء به كواهلهم بحيث يمكن أن يثير ردود فعل عنيفة بسرعة. ففي عام 514 هـ /1120 م كانت إمبراطورية المرابطين تنعم بحياة آمنة . وكان ابن تومرت هو الذي هيأ قوة غير عادية للشعور الكامن المعادي للمرابطين بين المصامدة. وقد حقق هدفه بإثارة القبائل ضد الهيمنة عليهم من قبائل من البربر تنتمي إلى جماعة تختلف عرقياً عن جماعتهم، وبأن بيَّن لهم ضعف مركز المرابطين من وجهة النظر الدينية، ولذلك فإنه يتحتم على المؤمنين الصادقين القيام على أولئك المرشدين الأشرار . وتمكن من خلق قوة قوية بدمج ردود الفعل السياسية والأهواء العرقية وبإثارته للمشاعر الدينية عن طريق بلاغته .

وقد أضاف إلى تلك القوة موقفاخلقيا، فندَّد بترف السادة المرابطين المناقض للحياة البسيطة لأهل الجبال من البربر الذين اعتادوا حياة التقشف الشديد نتيجة لمعتقداتهم ونمط حياتهم . وهو وحده الذي أثار ثم بَلْوَر المشاعر وردود الفعل الكامنة الكثيرة بين قبائل البربر في منطقة جبال الأطلس الأعلى .

ومع ذلك، فليس من المؤكد أنه كان باستطاعة ابن تومرت أن يبدأ حركة واسعة من هذا القبيل، لو أنه لم يستند إلى القوة الكاملة للإسلام . وهنا

يجازف المرء بالتحدث عن بلاد غير معروفة تقريبا، إذ لا يتوفر لدينا سوى النزر اليسير من المعلومات عن نمو الإسلام وتطوره بين قبائل البربر (51) .

وكل ما نعلمه هو أن معظمهم - إذ اعتنقوا الدين الجديد في مثل ذلك الوقت القصير - فهموه بطريقتهم الخاصة، وحاولوا بوعي نوعا ما أن يكيّفوه ليلائم النمط السابق لحياتهم ومعتقداتهم . وقد تبع معظمهم تقريبا فترة من الزمن الدعاة الخوارج الذين تسربوا إلى المغرب في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة / الربع الأول من القرن الثامن الميلادي في الفترة التي قدم فيها الفاتحون العرب . وبتأثير رجال بودنا أن نعرف المزيد عنهم، كصالح الذي ادعى النبوة في قبيلة برغواطة، فإن إسلامهم غير السُنّي "تَبَرْبر" وأصبح له كتاب مقدّس بلسان البربر وكذلك صلوات يومية . وإلى حد يتجاوز ما عليه الحال في الدين الإسلامي القويم، فإنهم كانوا يصومون ويحرمون تناول بعض الأطعمة، فكانت طرقهم تختلف عما أمر به النبي محمد صلى الله عليه وسلم . كما نعلم كذلك أن شخصا من قبيلة غمارة يُدعى حاميم دعا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي لديانة متأثرة بالدين الإسلامي (52) . ويبدو من الواضح أن معتقدات أخرى من هذا القبيل، مع أنها كانت قصيرة الأجل ولم تكن واسعة الإنتشار، قامت في المغرب . ويمكن القول إنه إذا كان الاسلام بشكل مشوه نوعا ما قد انتشر انتشارا واسعا بين قبائل البربر، فإنه كان إسلاماً سطحياً، وأنه لم تكن معروفة لديهم سوى مبادئه العامة . ولم ينجح إلا في حجب طقوس وعادات ومعتقدات نجهل منشأها ولا نكاد نعلم عنها شيئا، لأن المؤرخين المسلمين يحجمون عن ذكرها .

---

(51) حول هذا الموضوع، انظر ما كتبه ألفرد بِلْ : "لمحة عن الإسلام في بلاد البربر"، مجلة تاريخ الأديان، عدد يناير - فبراير 1917 . وكذلك كتابه بعنوان (الديانة الإسلامية في بلاد البربر)، الجزء الأول، باريس 1938 .

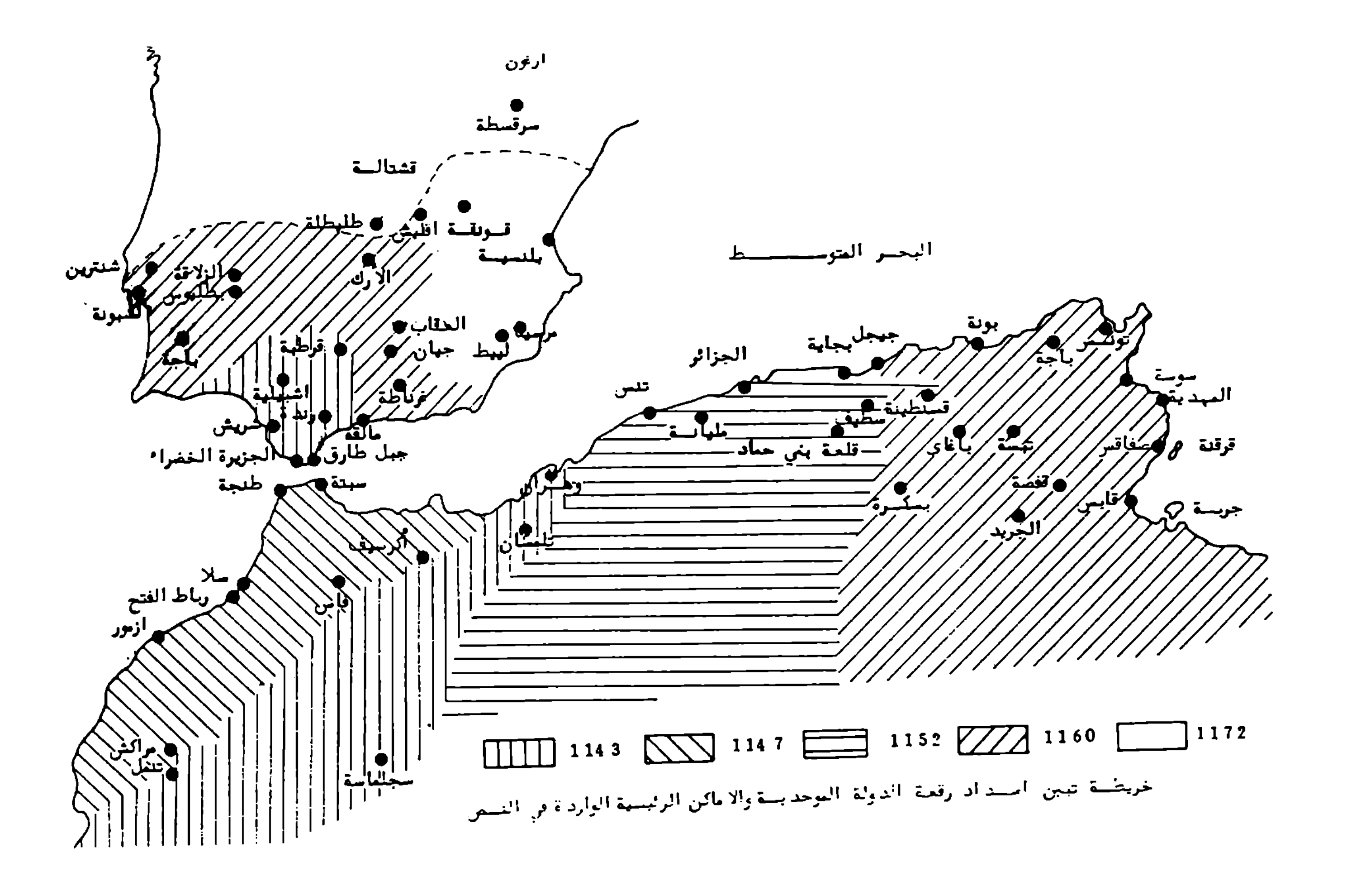
(52) عن حاميم، انظر (دائرة المعارف الإسلامية)، الطبعة الثانية، المجلد الثالث، ص 134 - 135 (الطبعة الإنجليزية) / ص 266 (الطبعة الفرنسية) .

وحتى إذا اعتبرت الصورة البربرية للإسلام غير صحيحة، فإنها مع ذلك تركت أثرا عميقا في المجتمع البربري . فقد أيقظت في هذا المجتمع الإيمان بالله الواحد القدير، وكذلك الرغبة في الإمتثال لأوامره على خير وجه. وهذا يفسر نجاح المرابطين الذين قدّموا أنفسهم بادىء الأمر كمصلحين دينيين، وذائدين عن الإسلام الصحيح . ونظرا لقلة المعلومات المتوفرة، فإننا لا نستطيع الجزم بأن جميع البربر تمسكوا بما أتت به قبائل صنهاجة من إصلاح، غير أننا متأكدون من أنه قبل ظهور ابن تومرت لم يَثُرْ أحدٌ منهم على إسلام المرابطين .

إن العبقرية الحقيقية لابن تومرت تكمن في تقديمه لنفسه وبيده القرآن الكريم، وفي التدليل مع ما كان قد اكتسبه من مكانة بعد إقامته الطويلة التي عكف فيها على الدراسة في المشرق، على أن المرابطين كانوا قد أخفقوا في رسالتهم الدينية، وأنهم قد أصبحوا مجسِّمين، وأنهم لم يسيروا بعد حسب أحكام الشريعة . وبالتدريج اتبعت قبائل برمتها من البربر في جبال الأطلس ابن تومرت، لأنه كان قد استطاع إقناعها برسالته الدينية . ومع ذلك، فإن العقيدة التي بشر بها كانت متقشفة وصارمة . وقد سبق أن بيّنا أنه لم يتردد في إنزال العقاب الشديد بأولئك الذين لم يسلكوا سلوكا حسنا، بل وفي استئصال جماعات كاملة لأنه اعتبرها جماعات إسلامية فاسدة . كان ابن تومرت يعرف مواطنيه حقّ المعرفة، وكان يدرك أنه لا تروقهم المرونة الزائدة، وأنهم سيقبلون في الحال المبدأ القائل بأن الجرائم ضد الدين يجب أن ينال أصحابها عقابا شديدا، لأن معظم مواطنيه كانوا راغبين في أن يكونوا مسلمين صالحين ملتزمين . وقد عمل ابن تومرت على أن يوفر لهم كل الوسائل الممكنة ليكونوا مسلمين صالحين مهما كانت الصعوبات القائمة ؛ وبدون الإسلام كان من المحتمل أن يبقى رئيسا قبليا صغيرا ثائرا فحسب بدون أي مستقبل . وقد أثبت وجودَه لأنه عرف كيف يثير المُثُل الدينية العظيمة التي كانت تتطلع إليها نفوس البربر .

كما استطاع تجاوز الإطار التقليدي بمحاولته خلق مجتمع جديد قائم على مبادىء تختلف عن مبادىء المجتمع البربري الموروث عن الآباء، مقتفيا سنَة النبي صلى الله عليه وسلم الذي نجح في إقامة جماعة في المدينة المنورة لم تكن قائمة على روابط الدم والاحترام للعُرف، بل كانت تجمع بينها روابط الدين واحترام الشريعة . وفي نهاية الأمر، لم يُكتب النجاح لمحاولة ابن تومرت خلق إمبراطورية متماسكة قادرة على البقاء، ولم يكن إخفاقه أيضا واضحا، بل أظهرت جماعة تنمل بعض الصفات الأصلية، فقد نجح المهدي في دمج جماعات قبلية مختلفة كان يمكن لولاه أن تبقى منفصلة عن بعضها البعض، بل معادية لبعضها البعض . لقد تغيّر شيء ما في جبال البربر، فابن تومرت بلا ريب قد هزّ البنيات القائمة .

ومع ذلك، فإن الوحدة حتى في حياة ابن تومرت لم تكن كاملة . فقد انضمت قبائل كثيرة إلى حركة الموحدين عنوة، كما تدل على ذلك رواية البيذق . ومن المحتمل أنها كانت تتحيّن حدوث انتكاس لسلطة الموحدين يسمح لها بالانفصال والعودة إلى سيرتها الأولى . ولم تكن ثمة مساواة حتى بين القبائل المهيمنة، ومن السهل أن نستنتج من نظام الطبقات الذي وصفه المؤرخون أن بعض الجماعات كهرغة وأهل تنمل مثلا، كان لها التميزّ على غيرها من القبائل التي يُحتمل أن تكون قد امتعضت لذلك . وباختصار، فإنه عند اختفاء المهدي كانت الوحدة ما تزال غير ثابتة وغير مستقرة، بل كانت عرضة للتفسخ إذا لم يُقيّض لها ظهور مرشد قوي لتولي أمر مصير جماعة الموحدين ومستقبل الحركة .



خريطة تبين امتداد رقعة الدولة الموحدية والاماكن الرئيسية الواردة في النص

الفصل الثاني

تشييد إمبراطورية

لم يكن من السهل، وقد توفي ابن تومرت، إيجاد رجل يخلفه له شخصيته القوية . وقد ثبت أن القرارات بشأن من يخلفه قد اتُخذت من قبل أفراد قلائل جدا وقت إعلان وفاة المهدي، ولم تُذَعْ هذه القرارات إلا بعد أن كانوا متأكدين من عدم قيام أية مصاعب. وليس من المؤكد معرفة ما إذا كان ذلك قد تمّ بعد حدوث الوفاة ببضعة أيام، أو بضعة أشهر، أو بضع سنين .

خلف ابن تومرت أحد طلبته الأوائل، عبد المؤمن بن علي، الذي كان قد لقيه في ملالة حينما كان ابن تومرت عائدا من مصر . وقد قُبل عبد المؤمن خلفا لابن تومرت مع أنه لم يكن ينتمي إلى أي من قبائل جبال الأطلس، أو ربما كان عدم الانتماء هو سبب ذلك . لا جَرم أن عبد المؤمن كان من البربر، وقد وُلد في سلسلة جبال ترارة الساحلية شمالي تلمسان، وهي تبعد كثيرا عن تنمل، ولم تكن قبيلته بالتأكيد تنتمي إلى نفس العشيرة التي تنتمي إليها مصمودة . وربما كان من الأسهل لمصمودة أن تقبل غريبا زعيما جديدا لها من أن تقبل أحد أبنائها الذي سيكون بالضرورة فردا من إحدى جماعاتها المحلية، ويُحتمل أن لا يحظى لذلك السبب بالقبول من جانب الجماعات الأخرى . كان عبد المؤمن من أول الطلبة وأعزهم، وكان يناهز الأربعين من عمره حينما توفي المهدي . وقد دلّل على شجاعته ونباهته في مناسبات كثيرة، أما مواهبه كقائد حربي ورئيس دولة فستتقرّر في المستقبل. وقد اعترفت به جماعة الموحدين خليفة في عام 526 هـ / 1132م أو عام 527 هـ / 1133م، أو ربما حتى في عام 528 هـ / 1134 م(1) .

---

(1) البيذق : كتاب المهدي بن تومرت، ص، 85 .

كانت بدايته متواضعة، وبعد أن تلقّى درسا من الكارثة التي مُني بها قرب مدينة مراكش، لم يَقُمْ ثانية بمهاجمة قوات المرابطين في أرضهم قبل التأكد من قدرته على الظهور عليهم . كما يحتمل أنه كان في هذا الوقت نفسه على اتصال سري بكثير من القبائل الواقعة تحت حكم المرابطين، ينشر بينها أفكار الموحدين السياسية والدينية . وقبل الزجِ بجنوده في ميدان القتال، رأى أنه من الأصوب التمهيد لذلك . ولا تتوفر لدينا أبداً أية تفاصيل دقيقة عن العمليات العسكرية التي جرت، ولا يذكر المؤرخون شيئا عن أعمال عبد المؤمن السياسية خلال هذه الفترة الطويلة والغامضة، إلا أنها كانت من غير شك أعمالا ماهرة وفعالة، إذ لم تسجَل سوى مقاومة ضئيلة ضد هجوم الموحدين فورَ وقوعه .

وبعد عدة سنوات – سبع أو ثماني سنوات – من الاستعدادات البطيئة المتئدة، وبعد مناوشات كثيرة جرت معظمها في المناطق الجبلية المجاورة وفي المنطقة الجنوبية المتاخمة للصحراء (2)، غادر عبد المؤمن تنمل في ربيع عام 535 هـ /1141 م . ولعله آنذاك كان يأمل، دون أن يكون متأكدا من ذلك، في ألاّ يُقيم ثانيةً في تلك العاصمة الصغيرة . وبسبب ما نفتقر إليه لسوء الحظ من أدلة كتابية، فإنه يستحيل أن نعرف بالضبط ما كان يجول في خاطر عبد المؤمن، إلا أن جميع تصرفاته تدل على أنه ابتداء من هذا الوقت – حَسْبَ سياسة المهدي – أخذ في إقصاء المرابطين عن مدينة مراكش وعن جميع أراضيهم، لأنه إلى حد كبير اعتبرهم غير جديرين بزعامة جماعة إسلامية .

كما لا شك في أنه اعتبر الموحدين الجماعة الوحيدة القادرة على أن تخلف المرابطين، إذ إنهم وحدهم، في رأيه، قادرون على السير بالمسلمين على الصراط المستقيم، بعد أن ضلَّلهم المرابطون «المجسِّمون» . ولما

---

(2) المصدر نفسه، ص 84 - 88 .

كان هو رئيس جماعة الموحدين، فإن من الجلي أنه اعتبر نفسه رئيسا لإمبراطورية المرابطين السابقة التي ينبغي أن تعود إلى الإسلام « الصحيح » .

هل نظر عبد المؤمن إلى أبعد من ذلك ؟ وهل حلم في غضون أيامه الأولى الغامضة بالسيطرة على كل المغرب الإسلامي، وبأن يقيم أسرته على رأس إمبراطورية مترامية الأطراف كهذه ؟ إن مثل هذا القول لا تسانده أيةُ أدلّة كتابية. لذلك علينا أن نوطِّن النفس على الجهل التام تقريبا بشأن دوافع عبد المؤمن، فهل كان انتهازيا حاذقا اغتنم كل فرصة سانحة ؟ أو هل كان رجلا طموحا على علم تام من أول الأمر بهدفه النهائي، رجلا عمل باستمرار لخلق فرص يمكن أن تؤدي به إلى ذلك الهدف ؟

ولا يتسنى لنا سوى المجازفة بافتراض، عندما نلاحظ الحماس للإصلاح الذي كان الدافع الأول لحركة الموحدين، فقد نستخلص أنه جالت على الفور فكرة في ذهن عبد المؤمن لنشر عقيدة المهدي في سائر أرجاء شمال إفريقيا، وربما الأندلس كذلك . أَلَمْ يَعِبْ ابن تومرت ما رآه في تونس وقسنطينة وبجاية (3) ؟ ألم يكن من المرغوب فيه لذلك، العمل على انتصار الإصلاح الموحدي في سائر أرجاء هذه البلاد ؟ وإذا تركنا الطموح الشخصي جانبا – وقد لا يكون ثمة مبرر لذلك – فإن عبد المؤمن تصوّر نشر رسالة معلمه في سائر أنحاء المغرب، حتى حينما كان يقيم في تنمل .

وليس من المؤكد أنه حلم في هذه المرحلة المبكرة بتنصيب نفسه وأسرته على رأس إمبراطورية موحدية، مع أن هذه الفكرة لا يمكن صرف النظر عنها كليةً .

(3) المصدر نفسه، ص 50 - 52 .

لقد سار ببطء ومنهجية، فتجنّب بانتظام ملاقاة المرابطين في ساحة القتال، بل وطّد سلطته في سائر انحاء سلاسل جبال المغرب الأقصى سلسلة بعد اخرى، مبتدئا بالأطلس الاعلى، ثم الأطلس الأوسط، ثم الريف، واخيرا السلسلة الجبلية الواقعة جنوبي تلمسان .

وقد اكد كثير من الباحثين هذه «اللعبة» التي استعمل فيها خصمان اسلحة مختلفة تماما، وكان كلاهما حذرا (بعد التجربة) من المخاطر التي تكتنف المغامرة في أراضي خصمه . وهكذا فإن عبد المؤمن، وقد كبحتْ جماحه الذكريات المُرّةُ لوقعة البحيرة، لم يخاطر بالنزول إلى السهل، بل شق طريقة عبر الجبال بمهارة فائقة . ولأول وهلة، فإن هذه أساليب غير مألوفة بالمرة، إلا انها كانت تناسب تماما حاجات الموحدين وظروفَهم العسكرية .

اما جنود المرابطين، فإنهم من جانبهم قلّما تركوا السهل، بل قصروا نشاطهم معظم الوقت على مطاردة الجيش الموحدي، مع بقائهم على مقربة منه للنزال، منتظرين بصبر أن يدخل عبد المؤمن متهوّراً ميداناً مكشوفاً فيُعرّض بذلك نفسه للمهاجمة من قبل فرسان المرابطين . ويبدو أن المرابطين لم يدركوا أن الوقت لم يكن في صالحهم، إذ إنهم حاولوا وقف تقدم عبد المؤمن بطوابير ضعيفة كانت دائما تُمنى بالهزيمة . ولم تكن لديهم الجرأة المطلوبة لمواقعة الموحدين في معركة حاسمة، لعلها كانت فرصتَهُم الوحيدة لسحق عدوِّهم .

وفي اثناء تجوال عبد المؤمن في الجبال، لم يقتصر على الاستيلاء على الأراضي بل شرع جاهدا في كسب الأنصار لعقيدة الموحدين، فضلا عن تجنيد المحاربين لخدمة قضيته . ويا لهم من محاربين ! جبليُّون أشدّاء، أسلاف جنود القرن العشرين، فلا ينتظر منهم والحالة هذه أن يكونوا سوى محاربين من الطراز الأول. إن رواية البيذق الذي شارك في «حملة السنوات السبع» ، صريحة حول هذه النقطة، فقلّما لقي الموحدون

مقاومة من جانب القبائل الجبلية، بل على العكس من ذلك، فإن معظم تلك القبائل لم تجد من الصعب عليها اعتناق قضية الموحدين (4) .

وهكذا فإن عبد المؤمن لم ينجح عمليا في شطر أراضي المرابطين إلى شطرين في ناحية تازة، وفي أن يقيم حول ناحية مراكش المرابطية شبه حركة كمّاشة في سلسلتي الريف والأطلس فحسب، بل إنه عزز جنوده أيضا تعزيزا كبيرا . وانشا تدريجيا قوة فعالة أصبحت أكثر فأكثر تضاهي قوة خصومه . وفي عام 539 هـ/1145 م، وفي المنطقة القريبة من تلمسان، قرر عبد المؤمن أخيرا انه بلغ من القوة درجة تمكنه من الشروع في حملة حاسمة في البسائط الواقعة بين تلمسان ووهران، وقد كُتب له الظفر فيها . ثم تحول إلى بسائط المغرب الأقصى، ومضى يُخضع فاس أولا، ثم مدينة مراكش – بعد محاصرات طويلة ومضنية – فتم له الإستيلاء عليها في ربيع عام 541 هـ/1147 م (5) .

كانت مدينة مراكش قد أسسها المرابطون، وكانت مقر سلطانهم، ولذا فليس من الغريب أن تبدي صمودا قويا ضد الموحدين . كما أن فاس أبدت مقاومة للفتح الموحدي لا تقل عن مقاومة مدينة مراكش، مما يبين أن مُدُناً كثيرة في الإمبراطورية – إن لم تكن كلها – قد استفادت من الرخاء المرابطي ونعمت به، وكانت لذلك متعلقة بقضية المرابطين تعلقا قويا . وقد خشيت هذه المدن غلبة البربر من أهل الجبال الذين عُرفُوا بالبساطة والتقشف، ومن ثم فإنها لم تتوقع أن يؤسس هؤلاء القوم إمبراطورية أكثر اتساعا وحضارة ورخاء مما كان المرابطون قد نجحوا يوما في تاسيسه .

وحتى بعد أن تم للموحدين الإستيلاء على فاس ومراكش وهزيمة

---

(4) المصدر نفسه، ص 89 - 96 .

(5) حول حصار فاس، انظر البيذق ص 99 - 102، وحول حصار مدينة مراكش، انظر المصدر نفسه ص 102 - 104 .

المرابطين، لم يصبحوا سادة المغرب الأقصى، إذ كان عليهم مواجهة ثورات رهيبة هددت سلطانهم (6) . وقد وقعت حركات الثائرين في جنوب المغرب الأقصى (إقليم السوس) وعلى ساحل المحيط الأطلسي من سبتة إلى أجادير، وقام بها على الأقل زعيمان يبدو أنهما لم يوحّدا خطتيهما، ولم يكونا على اتصال فيما بينهما. وبالرغم من قلة الإعداد لثورتيهما، فإن القبائل ساندتهما بحماس، واستطاعا أن يجهزا جيوشا حقيقية من عشرات الألوف من الرجال، تمكنت في مناسبات كثيرة من إيقاع هزائم منكرة بجنود الموحدين .

إن الثائرين المعادين للسلطة الجديدة كانت تحدوهم مشاعر دينية. وقد ثاروا على تصلب رأي الموحدين، لأن هؤلاء ندّدوا بالتأكيد بالمذهب المالكي الذي كان يناصره المرابطون . كما أشير (7) إلى أن القبائل الثائرة كانت كلُها تقريبا قبائل من أهل السهول، ولذلك فإنها وقفت بحزم ضد السلطة التي استحوذ عليها أهل الجبال مؤخرا . ولا يستبعد أنه في حالات كثيرة لعبت الخصومات القائمة بين النمطين الغريبين والمتضاربين للحياة القبلية على الأقل دورا في مقاومتها، فضلا عن الخلافات الدينية. وباختصار، فإن المرء يستطيع أن يقول إن قبائل السهول قاومت سيطرة الموحدين مقاومة شديدة، في حين أن قبائل الجبال رضخت لهم بسرعة .

وقد واجه عبد المؤمن الثورة بنشاطه المعهود ونجح في إخمادها . إلا أنه رأى أن النصر العسكري لم يكن كافيا، وانتهز فرصة وقوع حادث (8) (لا يصفه المؤرخون بوضوح) للشروع في حملة تطهير واسعة النطاق بين القبائل التي كانت قد ثارت لتوِّها، وحتى بين بعض قبائل الموحدين ذاتها.

---

(6) أعدّ دراسة جيدة جدا عن هذه الحركات علي مراد في مقال بعنوان " عبد المؤمن وفتح شمال إفريقيا" نُشر في (حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بالجزائر)، العدد 15 (1957) ، ص 122 - 131 . والجزء الأساسي من أدلته مصدره "مذكّرات" البيذق

(7) المصدر نفسه .

(8) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 109 - 112.

وإذا كان لنا أن نصدّق البيذق، فإن هذه العملية المسماة اعترافا (أي الاعتراف بسلطة الموحدين) أدت إلى وفاة 32780 شخصا . وهكذا فإن عبد المؤمن اضطر إلى اتخاذ أشد التدابير حزما لترسيخ حركته في المغرب الأقصى، وقد قام بذلك بقسوة لا هوادة فيها .

وفي الوقت نفسه تقريبا، اضطر عبد المؤمن أيضا إلى التدخل في الأندلس حيث أتاح ضعف سلطة المرابطين للنصارى الإسبان فرصة للفتح. غير أن الموحدين واجهوا مقاومة عنيفة من جانب أهل الأندلس، ويعود ذلك - إلى حد كبير- إلى عدم رضا الأندلسيين عن البربر، إذ كان الأندلسيون لا يزالون يذكرون مطالب رؤساء البربر وجنودهم في فترة الفوضى في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وهي الفترة التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة. ثم استقر المرابطون عام 479 هـ / 1086 م في الأندلس كسادة، وعاملوا البلاد كبلاد مفتوحة، مما جعل نفور الأندلسيين من البربر يزداد كثيرا في ذلك الوقت، (9) ولذلك تصلّبوا في مقاومة الموحدين - مع أن هؤلاء جاءوا انتصاراً للدين الإسلامي - لكونهم بربرا، ولأن صرامة عقيدتهم لم تكن تتفق إطلاقا مع الحرية الفكرية والأخلاقية التي اعتادها مسلمو شبه الجزيرة .

لذلك فإن عبد المؤمن اضطر إلى الاكتفاء باحتلال غرب الأندلس إذ إن ولايتيْ غرناطة وبلنسية لم تعترفا بسلطته . وهنا يمكن القول إنه باستثناء شرق الأندلس، نجح عبد المؤمن في وضع إمبراطورية المرابطين بأسرها تحت حكم الموحدين قبل حلول عام 545 هـ / 1152 م .

بَيْدَ أنه لم يكتف بذلك ، ففي عام 547 هـ / 1154 م جهز حملة ضد مملكة بني حماد في بجاية وأخضعها دون أن يلقى مقاومة تذكر . وكانت هذه المملكة قد ضعفت كثيرا بعد نزول قبائل البدو العربية في السهول العالية

(9) [ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة، ص 9، 16 ، 28 - المعرِّب]

في منطقة قسنطينة، وعاشت حياة اقتصادية متواضعة في عاصمتها بجاية وما حولها . وإذا كان الموحدون قد لاقوا مهمة سهلة بهذا الخصوص، فإنهم واجهوا صعوبات جمة في إخضاع هذه القبائل العربية.

ويذكر البيذق أن الموحدين هم الذين بدأوا القتال ضد العرب (10)، وليس ذلك بالأمر الغريب . فإن الموحدين وقد استولوا على بجاية، اعتبروا أنفسهم ورثة لممتلكات الحكام السابقين، أي لولاية قسنطينة بكاملها . وحينما تحولوا ضد ناحية سطيف، فإنهم في الواقع كانوا يعتقدون أنهم متوجهون إلى أراضيهم .

ويبدو أن سقوط بجاية لم يلق أي رد فعل من جانب العرب، سوى أنهم لم يَرَوْا ما يبرر خضوعهم لحكم الموحدين، إذ لم يسبق لهم أن خضعوا لبني حماد . وحينما استولى الموحدون على قلعة بني حماد . أقام العرب إئتلافا أوقع الهزيمة بالموحدين، والسبب في ذلك إذا جاز لنا أن نصدق قول البيذق (11)، هو قيام نزاع بين إثنين من رؤساء الموحدين عُهِدَ إليهما بقتال العرب . ولثلاثة أيام أبدى العرب مقاومة عنيفة للجيش الموحدي بكامله وهو الجيش الذي كان قد شن هجوما ضدهم في سهل سطيف (12).

ثم بعد ذلك بسنوات، استجاب عبد المؤمن لاستغاثة مسلمي إفريقية الذين ناشدوه تدخل الموحدين، بعد أن رأوا النورمان من صقلية يحتلون بعض موانيهم ويمتد نفوذهم إلى سائر أنحاء البلاد . وقد أعدَّ عبد المؤمن حملته بعناية بالغة، واصطحب معه جيشا لَجِباً. وفي البداية، استولى على

---

(10) البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، ص 114 . يذكر البيذق أنه بعد أن ميز الخليفة الموحدين «خرج يصلاسن بن المعز وعبد الله بن وانودين صهر أمير المؤمنين للعرب» . ولما كان لا يتوفر لدينا دليل بأن العرب كانوا سابقا قد هاجموا الموحدين، فإننا نميل إلى الإعتقاد بأن المبادرة بالقتال جاءت من جانب عبد المؤمن.
(11) المصدر نفسه، وكذلك هـ. ر. ادريس : إفريقية تحت حكم بني زيري، باريس، 1962، الجزء الأول، ص 365 - 374 .
(12) ابن خلدون : كتاب العبر، 6 / 491 .

مدينة تونس حيث قضى على أسرة بني خراسان التي كانت تحكمها منذ أكثر من قرن من الزمن . ثم بدأ في حصار المهدية معقل النصارى الرئيسي، واستولى عليها في محرم 555 هـ/ يناير 1160 م (13) . وتم بذلك إبعاد النورمان عن إفريقية، ومنذ ذلك التاريخ ملك عبد المؤمن إفريقية وطرابلس الغرب أيضا .

وهكذا فإنه لأول مرة في تاريخ شمال إفريقيا، فيما نعلم، توحّدت تلك البلاد على يد البربر . ولا جدال في أن صفات عبد المؤمن الشخصية كانت عاملا رئيسيا في هذا الإنجاز ؛ فقد كان قائدا حربيا جيدا، كما كان رئيسا سياسيا جيدا، ولذلك استطاع أن يقود الموحدين إلى نصرٍ لم يسبق له مثيل . ومن ثم فهو على حق حينما كان يقدم نفسه دائما كالوارث الأمين للمهدي، فما أنجزه عبد المؤمن ما كان ليتحقق لولا الحماس الذي بثه ابن تومرت في نفوس المصامدة، ولولا النظام الذي استطاع أن يفرضه على القبائل .

بيد أن عبد المؤمن كان أقل وفاء بكثير لتعاليم المهدي مما كان يُظَنّ. أجل إنه كان ورعا شديد الورع، وشديد الالتزام بالسنن الدينية التي استنها المهدي، إلا أنه صحيح كذلك، أنه لم يتوفر له البيان نفسه ولا قوة الإقناع نفسها ولا الإيمان الديني العميق نفسه – على ما يحتمل – ولا المعرفة التي توفرت لمعلّمه . وقد وصلتنا بعض النصوص التي كتبها حول أمور دينية، فكلها تبعث على الملل لأنها لا تشتمل على شيء ذاتي ولا على ما يشبه الإيمان المتألق لابن تومرت . ومن الناحية الدينية، يبدو أنه لم يحتفظ إلا بصرامة عقيدة ابن تومرت وورعه . فحينما استولى على إفريقية – على حد قول مؤرخ مشرقي (14) – عرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى، فمن أسلم سلم، ومن امتنع قُتِل . وتدل جميع

(13) المصدر نفسه، 6 / 494. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9 / 64 .

(14) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، انظر في موضعه، 9 / 64 .

البيّنات المتوفرة على أن الشعائرالدينية والمواعظ كانت مرعية في بلاط عبد المؤمن . ولا يستطيع المرء أن يدعي أنه أهمل في العقيدة والسنن الدينية التي أقامها ابن تومرت : فلم تكن إمبراطورية الموحدين تحت حكمه أقل ورعا من الجماعة الصغيرة في تنمل في عهد المهدي، إلا أن ذلك الورع كان أكثر آلية واصطباغا بالصبغة « الرسمية » مما كان عليه سابقا . لقد كان رئيسا حربيا عظيما، وإداريا جيدا، ورجلا حكيما ونشيطا، ومسلما مخلصا، إلا أن صدره لم يكن يجيش بالحمية المتقدة والمتألقة التي توفرت لابن تومرت، كما كان رجلا مجردا عن المؤهلات الدينية الحقيقية . وهذه الكلمات القليلة تصور الصفات الأساسية لعبد المؤمن .

وثمة شيء آخر يؤخذ على عبد المؤمن . فمع أنه مؤسس إمبراطورية الموحدين، كان أيضا أول من عمل على تفسخها. وبالطبع فإنه لم يسع للشروع في تقويض ما كان يبنيه، كما لا شك في أن ما اتخذه من إجراءات إنما كان عن اقتناع منه بأنه سيعزز قوة الموحدين، إلا أنه في الواقع ضرب ضربتين لم تصح بسببهما إمبراطورية الموحدين أبدا . وقد سُدِّدَتْ هاتان الضربتان في آن واحد تقريبا وقت أن كان عبد المؤمن في أوج سلطانه .

أما الضربة الأولى فهي إدخال بعض القبائل البدوية العربية إلى المغرب الأقصى . وحتى ذلك التاريخ، لم يكن العرب قد تجاوزوا في تقدمهم وسط الجزائر في منطقة بو سعادة، ويحتمل أن يكون قد تم إيقافهم على يد إمبراطورية المرابطين . فلما أتم عبد المؤمن هزيمة هذه القبائل وإخضاعها فكر في استخدامها في الجهاد ضد النصارى في الأندلس، فتحادث معهم محاولا إقناعهم بأن يجلبوا بعض قبائلهم إلى المغرب الأقصى لكي يتم إعدادها للجهاد في الأندلس، وهذا هو السبب الذي يُذكر دائما لتبرير هذا القرار .

وربما كان ثمة سبب آخر له، فبعد حملة عام 547 هـ / 52 - 1153 م ضد مملكة بني حماد، نشأت أزمة خطيرة في الدوائر الحاكمة للموحدين : ذلك أن اثنين من إخوة المهدي اللذين ظلا على قيد الحياة بعد وفاته بدر عنهما عداء سافر نسبيا تجاه عبد المؤمن، وانحاز إليهما آخرون . ولعل ذلك أشعر الخليفة بأن حاجته إلى جنود صاعقة للذود عنه وقت الضرورة لا تقل عن حاجته إلى محاربين للجهاد . إن هذا التقدير كان سليما من وجهة نظر قصيرة المدى كما سنرى بعد قليل، لكنه من وجهة النظر البعيدة كان بمنزلة الكارثة على إمبراطورية الموحدين وأسرتها الحاكمة . فحالما تتهاوى سلطة الخليفة تكون هذه القبائل العربية التي استقرت في قلب الإمبراطورية في مركز يمكّنها من التدخل في سياسة الدولة العامة. ولما لم تكن لهذه القبائل أفكار أو تقاليد سياسية، فإنها تقدّم مساعدتها لأعلى مساوم، وبذا تصبح عاملا من عوامل الفوضى وعدم الإستقرار .

وبعد ذلك ببعض الوقت، في ربيع عام 549 هـ / 1155 م ناشد عدة زعماء عرب عبد المؤمن أن يسمي أحد أبنائه وليا للعهد . أما ما إذا كان هذا الطلب قد جاء بمبادرة من هؤلاء الزعماء أم أنهم حُملوا على التقدم به، فذلك موضع نظر . ويبدو أن الخليفة رفض الطلب في بادئ الأمر، ولكنه قبله آخرا ولم يكن ذلك فيما يبدو عن غير رضى منه . وعندئذ ثار أخوا المهدي علنا، وحاولا الإستيلاء على السلطة في مدينة مراكش، إلا أنهما أخفقا، وتم إعدامهما . وبعد هذه الحادثة، طلب العرب ثانية من عبد المؤمن أن يعيّن أبناءه ولاةً على الولايات الرئيسية . وللمرة الثانية تظاهر عبد المؤمن بالدهشة ورفض الطلب، ثم لم يلبث أن بدل رأيه مرة أخرى . وهكذا فقد حدث أسوأ ما يمكن حدوثه، إذ لم تعد الإمبراطورية منذ ذلك الوقت قائمة بثبات على حركة الموحدين، بل تحولت إلى إمبراطورية وراثية

لمصلحة أسرة الخليفة (15) . ولعل عبد المؤمن، دون أن يدرك ذلك إدراكا جليا، قد صادر بعمله هذا الإمبراطورية نيابة عن عقبه. وبالطبع، فإنه وخلفاءه ظلوا يكرمون زعماء الموحدين ويتظاهرون بأنهم يولونهم دورا كبيرا . أما في الواقع فإن هؤلاء الزعماء أصبحوا تدريجيًا أشبه بموظفين إضافيين يلقون بالغ الحفاوة والتكريم . ونتيجة لهذا التغيير العميق، فإن التنافس المثمر بين القبائل من ناحية والحماس الديني من ناحية أخرى (وهو الحماس الذي أثاره المهدي)، سرعان ما أصبحا كليلين واختفيا كليّة . وفي الوقت ذاته، فإن النزعة الإقليمية لدى البربر قد دبّتْ فيها الحياة، هذا إذا افترضنا أنها كانت نائمة حقيقة . ولا شك أن ذلك التطور احتاج إلى بعض الوقت، إلا أنه لم يلبث أن أصبح جليا تماما .

وهكذا فحينما توفي عبد المؤمن في عام 558 هـ / 1163م، كانت الإمبراطورية التي تركها خليفة المهدي أقوى ظاهريا منها في حقيقة الأمر، إلا أنها خلّفتْ انطباعا جيدا . ولم تتم دائما المحافظة على النظام دونما صعوبة، ففي كثير من المناطق، استدعى الأمر استخدام القوة، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر المستغرب، إذ إن شعوب المغرب لم تكن قد اكتسبت بعد عادة العيش معا، وفي الأندلس، فإن الجزء الخاضع لحكم المسلمين لم يخضع بكامله لحكم الموحدين ؛ لأن حركة معادية للبربر قد بدأت في شرق الأندلس في نواحي بلنسية ولَقَنتْ ومُرسية، وكان عبد المؤمن يجهز حملة لمناهضة الحركة حينما حضرته الوفاة (16) . ومع

---

(15) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، انظر مقالة روجر لي تورنو بعنوان : "حركة الموحدين وأسرة عبد المؤمن – ثورة شقيقي ابن تومرت من عام 1153 الى عام 1156" في (MELANGES D'HISTOIRE ET D'ARCHEOLOGIE DE L'OCCIDENT MUSULMAN) ج : 2 ص 111 - 116 .

انظر كذلك علي مراد : "عبد المؤمن وفتح افريقيا الشمالية"، انظر في موضعه، ص 136 - 152 .

(16) حول تطور الأحداث في الأندلس، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، انظر في موضعه، الجزء الأول، ص 196 - 207.

ذلك، فإن سلطة الخليفة كانت أقوى وأكثر انتشارا من سلطة أي سلطان سبقه من البربر .

وكانت تلك السلطة تساندها إدارة كفؤة - كما تبيّن المعلومات المتوفرة - دللت بجلاء على مقدرة عبد المؤمن الإدارية . وفي الواقع، فإنه ما إن فرغ من الاستيلاء على كل بلاد المغرب، حتى أمر بإجراء مسح عام لجميع الأراضي، ففرز المناطق القابلة للفلاحة عن الغابات والأراضي القاحلة، لكي تتسنى جباية الضرائب على أساس سليم . ولسوء الحظ فإنه لا تتوفر لدينا سوى بضعة سطور كتبها مؤرخ متأخر عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي عن هذا التنظيم الخاص بالخراج، وهي لا تزوّدنا بأية تفاصيل تمكّننا من الحكم بدقة على مواهب عبد المؤمن ومعاونيه ورجال إدارته (17)، إلا أنها على أية حال ذات أهمية، وتدل على أن للخليفة بعض الأفكار الإدارية العملية التي لاءمت إمبراطوريته كل الملاءمة . ومن المؤكد كذلك أن الوضع المالي الموحدي كان لأمد طويل جيدا، ومكّن الموحدين إجمالا من تلبية احتياجات الإمبراطورية بصورة مناسبة . كما أن عبد المؤمن احتفظ بالنظم التي أقامها ابن تومرت حتى ولو عكست من وجهة نظر عامة روح المهدي، بل إن الخليفة أدخل تحسينات على بعض تلك النظم كما فعل بالنسبة لطبقة الحفاظ التي يزوّدنا عنها مؤرخ مجهول الاسم عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بالمعلومات التالية :

"وربّى الحفّاظ بحفظ كتاب الموطأ، وهو كتاب أعزما يُطلب، وغير ذلك

---

(17) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 129 : " وفي هذه السنة (555 هـ / 1160 م) أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب . وكسّر منها من بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا . فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات . وما بقي قسّط عليه الخراج . وألزم كل قبيلة قسطها من الزروع والورق . فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب "

من تواليف المهدي (18) . وكان يُدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة، من المصامدة وغيرهم . قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده. فيأخذهم يوما بتعلم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع (700 ياردة)، ويوما يأخذهم بأن يجدِّفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة . فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء، وتارة بالأدب . وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده، وخيلُهم وعُدَدهُم كذلك . ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرياسة وقال : العلماء أولى منكم، فسلِّموا لهم . وأبقاهم معهم في المشورة» (19) .

ان هذا النظام الذي يصفه المؤرخ يُعرف بالفرنسية الحديثة باسم مدرسة الأطرْ (انظر أسفله) . ولقد اهتم عبد المؤمن بتدريب إداريين من طراز جديد لإمبراطوريته المترامية الأطراف، يجمعون بين العلوم الدينية ومختلف التدريبات الرياضية .

وثمة أخيرا نقطة واحدة نجد أنفسنا عندها في مركز جيد لتقدير قيمة عبد المؤمن، فقد كان مولعا بتشييد المباني الجديدة . ففي مدينة مراكش شيد قصرا لم يبق منه الآن لسوء الحظ أيُّ أثر، كما بنى حصن الرباط على صخرة تتحكم في مصب وادي بو رقراق، وقد رُمِّم هذا الحصن في مناسبات كثيرة، ولم يحتفظ بمظهره الأولي (20) . وأمر ببناء المساجد في

---

(18) يخلط المؤلف بين كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس، صاحب المذهب المالكي، وبين الكتاب الوحيد المعروف لابن تومرت. [يذكر ابن صاحب الصلاة (موطأ المهدي)، انظر ص 299 من (تاريخ المن بالإمامة)، السفر الثاني، بيروت 1964 والحاشية رقم 1 في الصفحة نفسها للمحقق عبد الهادي التازي - المعرِّب]

(19) الحلل الموشية، ص 125 .

(ECOLE DES CADRES)

(20) جاك كابيه : مدينة الرباط حتى بداية الحماية الفرنسية، باريس، 1949 الجزء الأول، ص 83 وما بعدها .

تازة (21) وفي تنمل (22) وفي مدينة مراكش حيث جامع الكتبية الشهير ببرجه العالي الأحمر اللون الحسن الزخرفة (23) . وكما فعل المرابطون من قبل، إستعان عبد المؤمن بالفنيين الأندلسيين، إلا أنه حباهم روحا جديدة، فقد أحلّ محل الزخرف الساحر لفترة المرابطين – ولو أنه زخرف يفيض حيوية – فنًا بسيطا ومتقشفا، انتهى إلى تميُّزه بالروعة . ولعل مسجد تنمل في واد جبلي ضيق أعظم نموذج لفن المعمار الموحدي . ولم تبق من هذا المسجد سوى أطلاله، إلا أنها مهمة، وقد تمت المحافظة عليها وأعيد ترميم المسجد بشكل يمكّننا من تقدير روعة مظهره قبل أن يعفي عليه الزمن. وعند مشاهدة تلك الآثار، يستطيع المرء أن يقول إن عبد المؤمن لم يكن مؤسسا لإمبراطورية عسكرية وسياسية عظيمة ورئيسا لإدارة لم يسبق أن قام مثلها قط في شمال إفريقيا فحسب، بل كان أيضا مبدعاً أو موحيا لطراز معماري يُعتبر أكثر الطرز في شمال إفريقيا أصالة ووقعا في النفس .

لم يكن عبد المؤمن من عشاق التفاصيل الصغيرة، ولم يكن بالرجل العاطفي كما يتبين من هذه الحكاية التي يرويها المؤرخ عبد الواحد المراكشي (24) عن الوزير أبي جعفر قال : "دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره، وتفتحت أزهاره ... وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان، فسلَمتُ وجلستُ، وجعلتُ أنظر يمنة وشأمة، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان، فقال لي : ياأبا جعفر، أراك كثير النظر إلى هذا البستان ! قلت : يُطيل الله بقاء أمير المؤمنين، والله إن هذا لمنظر حسن! فقال : يا أبا جعفر، المنظر الحسن هذا ؟ ... فلما كان بعد يومين أو ثلاثة،

---

(21) هنري تراس : الجامع الكبير في تازة، باريس، 1943 .

(22) هنري باسيه وهنري تراس : رباطات ومعاقل الموحدين، انظر في موضعه، ص 1 - 83 . كذلك هنري تراس : الفن الأندلسي المغربي من نشأته إلى القرن الثالث عشر، باريس، 1932 ص 284 وما بعدها .

(23) باسيه وتراس : رباطات ومعاقل الموحدين، انظر في موضعه، ص 84 - 273 .

(24) المراكشي : المعجب، ص 201 - 202 .

أمر بعرض العسكر ... وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة، وكتيبةً إثر كتيبة، لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاحٍ، وفراهةَ خيلٍ، وظهور قوة . فلما رأى ذلك، التفت إليّ وقال : يا أباجعفر، هذا هو المنظر الحسن، لاثمارك وأشجارك" .

وإذا كان عبد المؤمن قد حُرم من ذوق مرهف، فإنه كان لديه على الأقل شعور بالعظمة، ويمكن اعتباره من بين أكثر مؤسسي الحضارة الإسلامية موهبة .

إلا أن عيوبا خطيرة كانت تكمن خلف هذا المظهر الخارجي الرائع، ففي أثناء إقامة سلطته، كان عبد المؤمن قد حول حركة الموحدين تحويلا عميقا ؛ فإنه لم يتخلَّ عن المباديء الأصلية للحركة لمنفعة أسرته فحسب - وكانت تلك خطوة تناقض تناقضا تاما تقليد الموحدين - بل إنه أيضا لم يعد عمليا يعتمد على المصامدة (25) .

ومن السهل أن يصدِّق المرء بأن بعض المصامدة الذين أدركوا الوضع حق الإدراك، حاولوا اغتياله في عام 555 هـ / 1160م حينما كان في طريق عودته إلى مدينة مراكش بعد الاستيلاء على المهدية (26)، ولم ينقذه من الموت سوى تضحية أحد أصحابه الذي علم بالمؤامرة وأعلم الخليفة وتوسل إليه أن يبيت مكانه في خبائه، عارضا بذلك أن يضحي بحياته . ويذكر صاحب (روض القرطاس) الذي يروي هذه الحادثة بوضوح أن المؤامرة دبّرها بعض الموحدين الذين ملُّوا من الحروب المتواصلة التي زجّهم الخليفة فيها .

---

(25) حول هذه النقطة، انظر الملاحظات الممتازة التي أبداها علي مراد في مقاله بعنوان "عبد المؤمن وفتح شمال إفريقيا" في (حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بالجزائر) العدد 15 (1957) انظر في موضعه، ص 153 - 160 .

(26) المراكشي : المعجب، انظر في موضعه، ص 233 . ابن أبي زرع : روض القرطاس، انظر في موضعه، ص 130 . ورواية المراكشي ليست واضحة لأنه يخلط بين هذه المحاولة لاغتيال عبد المؤمن وبين ثورة شقيقي المهدي. ويبدو أن رواية (روض القرطاس) هي الرواية الأصح .

وبالتأكيد فإن ثمة ما يبرر شعورنا بأن هذا لم يكن السبب الوحيد لمحاولة الاغتيال . وفي الواقع، فإنه منذ الحملة ضد مملكة بني حماد، كان عبد المؤمن قد انتهج باستمرار سياسة الحلم تجاه العرب، وحاول أن يجعلهم أكثر ارتباطا بشخصه . وكان من الواضح أنه باستثناء بعض الأفراد كأبي حفص عمر إنتي، لم يَعُدْ عبد المؤمن في هذا الوقت ينظر إلى أصحابه الأوائل كسندٍ رئيسي له .

وبعد محاولة الاغتيال ببعض الوقت، اتصل عبد المؤمن سرا برؤساء قبيلته كومية، وطلب إليهم إرسال محاربين لضمان سلامته، لأنه - حسب رواية صاحب (روض القرطاس) - غريب في وسط قبائل مصمودة، وليست له أسرة يمكنه الإعتماد عليها، أو قبيلة يمكنه الثقة بها أو الركون إليها (27) وقد دُهش الموحدون لوصول تعزيزات كبيرة كهذه (28)، وتساءلوا بعض الوقت عما إذا كان رجال كومية قد جاؤوا بوصفهم أصدقاء أم أعداء . وقد رحب الخليفة بهم أحسن ترحيب، وجعلهم في الصنف الثاني من طبقات الموحدين بعد أهل تينمل مباشرة، وهو قرار أحفظ بالتأكيد معظم الموحدين، ذلك لأن رجال كومية بوصفهم ينتمون إلى مجموعة مختلفة من البربر، كانوا يُعتبرون أغرابا .

ويبدو لذلك أن نية عبد المؤمن كانت واضحة، إذْ لما أدرك أن الموحدين يبتعدون عنه تدريجيا، لأنه كان قد استولى على زمام السلطة لأسرته، فإنه اعتمد على العرب وعلى قبيلة كومية، وهما جماعتان غريبتان لم تكونا قد شاركتا في الاستيلاء على المغرب . وبعمله هذا عزز شعور الموحدين بأن إمبراطوريته لم تعد إمبراطوريتهم، وهذا بدوره أعطى حكمه كيانا هشًا يختلف تماما عن الكيان السابق .

---

(27) ابن أبي زرع : روض القرطاس، انظر في موضعه، ص 131 .

(28) من المحتمل أن عدد 40.000 الذي يذكره المؤرخ عدد مبالغ فيه

إن الإمبراطورية التي تكونت بهذا الشكل عاشت نحو خمسين عاما : توفي عبد المؤمن في عام 558 هـ/ 1163 م، وظهرت البوادر الأولى للضعف الخطير في دولة الموحدين إثر الهزيمة المنكرة التي مني بها الموحدون عام 609 هـ/ 1212 م، في وقعة العِقاب (انظر أسفله) في الأندلس على يد ائتلاف نصراني بزعامة القشتاليين .

وفي الفترة ما بين عام 558 هـ/ 1163 م، وعام 609 هـ/ 1212 م، تعاقب على الحكم ثلاثة خلفاء هم : أبو يعقوب يوسف الذي حكم من عام 558 إلى عام 580 هـ / 1163 - 1184م، وأبو يوسف يعقوب المنصور الذي حكم من عام 580 إلى عام 595 هـ/ 1184 - 1199 م، ومحمد الناصر الذي حكم من عام 595 إلى عام 610 هـ/ 1199 - 1213 م .

إن أمر مَنْ يخلف عبد المؤمن كان يمثل مِحَكًّا مهما بالنسبة للأسرة الحاكمة الجديدة . فهل يكافح أشياخ الموحدين لإحياء المظاهر الأساسية لحركة الموحدين في صورتها البسيطة الأولى، أو هل يلتزمون برغبة عبد المؤمن في أن يعطي أسرتَه سلطةً مطلقةً بين الموحدين ؟ أما المؤرخون فيذكرون أن الأشياخ لم يتدخلوا في أمر الوراثة بتاتا . ولما كان هؤلاء الأشياخ أثرياء جدا، فإنهم كانوا واثقين من أن الخليفة الجديد سوف يحترم امتيازاتهم، ولذلك فإنهم، بما فيهم أبو حفص عمر إنْتي، تركوا أبناء عبد المؤمن وشأنهم يفعلون ما يشاؤون . ومكانة أبي حفص كان من الممكن أن تغير مجرى الأمور، فقد كان كبير السن ويحظى باحترام كبير، كما أن أبناءه كانوا قد تولَّوْا مناصب مرموقة. وبالتالي، وبعد شيء من التردد، أثبت أبو حفص أنه وفيٌ لأسرة عبد المؤمن، كما كان وفيًا من قبل للمهدي. ومع ذلك، فإنه يمكن القول بأنه – دون وعي منه – كان أقلّ وفاءً لروح حركة الموحدين .

(LAS NAVAS DE TOLOSA)

بَيْدَ أن نوايا عبد المؤمن لم تُنفَّذ بكاملها . فكان بادىء الأمر قد سمّى ابنه الأكبر محمدا خلفاً له، ومع أن روايات المؤرخين تتباين كثيرا حول هذه النقطة، فإن الأمير محمد احتفظ بالسلطة أياما أو لعله احتفظ بها لعدة أسابيع . إلا أنه أُرغم على التنازل عن منصبه لأن اثنين من أشقائه أقاما ائتلافاً ضده، وهما أبو يعقوب يوسف الذي نودي به خليفة، وأبو حفص عمر الذي كان وزيرا في عهد عبد المؤمن، ولذلك فإنه كان يحظى بسلطات واسعة (29). ويذكر مؤرخو فترة الموحدين أسبابا وجيهة لهذا التبديل، ولعل تنازل الأمير محمد بمثل هذه السهولة دليل على أنه لم يتوفر فيه النشاط أو الشخصية ليصبح رئيسا لإمبراطورية مترامية الأطراف من هذا القبيل. ومع ذلك، فإن التبديل كان قبل كل شيء نتيجة لدسائس عائلية، من المحتمل أن تكون نساءُ الأسرة قد شاركن فيها . ومن الواضح أن الأسرة الحاكمة كانت تتراجع تدريجيا عن الحياة المُثلى للجماعة التي كان ابن تومرت قد حاول إقامتها في تنمل .

وفضلا عن ذلك، فإن ارتقاء أبي يعقوب يوسف العرش أثار بعض الإضطراب في أسرة عبد المؤمن، فقد رفض أن يُقسم يمين الولاء لأبي يعقوب إثنان من إخوته، هما والي بجاية ووالي قرطبة اللذان ذكرا أنهما باقيان وفيّين لمن سمّاه عبد المؤمن خليفةً له. وأخيرا انتهت معارضتهما بعد سنتين .

ولم يكن أخوا الخليفة هما الوحيدين اللذين هدّدا وحدة الصف بين الموحدين، فقد شقّتْ عصا الطاعة بعض القبائل من سلسلة الجبال الشمالية بالمغرب الأقصى كغمارة وغيرها، واضطرّ الخليفة إلى قمع هذه

---

(29) حول بداية حكم أبي يعقوب، انظر هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لدولة الموحدين، انظر في موضعه، الجزء الأول، ص 219 - 222 .
[ابن عذاري : البيان المغرب، الجزء الثالث الخاص بتاريخ الموحدين، ص 58 وما بعدها - المعرّب] .

الثورات بالقوة . كما ثار أهل مدينة قفصة في إفريقية في الوقت نفسه، إلا أنه يبدو أن ثورتهم تعود لإسباب محلية بحتة .

ومهما يكن من أمر، فإن أبا يعقوب، عن طريق الدبلوماسية الماهرة وكذلك عن طريق القوة الغاشمة، تمكن من تذليل سائر الصعوبات، واعترف به الجميع آخر الأمر خليفة، وكان ذلك على ما يحتمل في سنة 562 هـ / 1167م . ثم اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين، بينما كان قد اكتفى في السابق بلقب أمير (30) . وحالما تيقن من تبوئه العرش، سلك مسلك أبيه، فأغدق على أشياخ الموحدين، إلا أنه أحال السلطة الحقيقية إلى أفراد أسرته . ويبدو من المؤكد أن التحكم التام بحركة الموحدين قد آل في عهده إلى أسرة عبد المؤمن، أي أن الحركة فقدت روحها كلية. لكن نتائج هذا التغيير لم تتضح أثناء حكم أبي يعقوب، وفي الواقع فإن سلطة الموحدين ازدادت في عهده، وكان للخليفة نصيب طيب في ذلك .

لقد كان السلطان الجديد من البربر. وُلد في الأطلس الأعلى كوالديه من قبله، وكان قد تلقى تعليما حسنا جدا . وقد أمضى وقتا طويلا في إشبيلية قبل ارتقائه العرش. واثناء مقامه في إشبيلية فُتن بالأدب والفن الأندلسيين، وقبل عودته إلى مسقط رأسه كان قد اكتسب ثقافة عربية أصيلة، ونشأ عنده ولع بالكتب والبناء، مما أدى إلى أن تصبح مدينة مراكش مركزا للثقافة الفكرية .

وقد قامت صداقة شخصية بين أبي يعقوب والفيلسوف الأندلسي ابن طُفيل صاحب (كتاب حي بن يقظان) (31)، وعن طريق ابن طفيل عرف أبو

---

(30) تبدأ إحدى رسائله الرسمية بهذه العبارة : « من الأمير يوسف، ابن أمير المؤمنين ...» انظر الرسالة الرابعة والعشرين، ضمن مجموعة (سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية)، تحقيق ليفي - بروفنسال، الرباط، 1941 .

(31) (حي بن يقظان ..)، تحقيق وترجمة ليون جوتييه، الطبعة الثانية، بيروت، 1936.

يعقوب الفيلسوف العظيم ابن رشد (انظر أسفله) وشجع مؤلفاته (32) . ومن هذه الناحية، فإنه دلل على أنه يختلف كثيرا عن أبيه الذي كان رجل عمل في المقام الأول . ولا جدال في أن الحضارة الموحدية الأكثر رقةً أخذت تزدهر أثناء حكم أبي يعقوب .

ويُجمع المؤرخون على أن حكم أبي يعقوب كان بعد بضع سنوات صعبة، عهد رخاء وسلام . فقد نظم السلطان احتفالات فخمة في مدينة، مراكش وكذلك في إشبيلية وغيرهما من المدن، وكانت الضرائب تجبى دونما صعوبة . وفضلا عن ذلك، فإنه ما إن انقضت ستون سنة على تأسيس المهدي في تنمل لجماعة صغيرة من أهل الجبال كانت غنية في نشاط أهلها فحسب، حتى غدت إمبراطورية الموحدين حقيقة سياسية ضخمة، واكتسبت توازنا مُرضيا .

كذلك فإن أبا يعقوب لم يؤل إليه ميراث ضخم من أبيه فحسب، بل استطاع أيضا أن يزيد عليه، إذ نجح في أن يُخضع لسلطة الموحدين ذلك الجزء من الأندلس الذي كان قد ظل حتى ذلك التاريخ مستقلا . وفي الأندلس، صمد في وجه كثير من هجمات النصارى الذين أبدوا كثيرا من الجرأة . إلا أنه إجمالا اتخذ موقفا دفاعيا، لأنه لم يتوفر فيه نشاط أبيه ولا مواهبه العسكرية. إن غزواته ضد النصارى الإسبان لم تُكلَّل دائما بالنجاح، وانتهت آخرها التي شُنَّتْ ضد مدينة شنترين في عام 580 هـ/ 1184م بكارثة، وكلفت الخليفة حياته . لقد قام الباحث الإسباني أمبروسيو هويثي ميراندا بدراسة دقيقة جدا لتلك الغزوات (33) مستعملا أحيانا بعض

---

(32) عن الاتصالات بين أبي يعقوب وابن طفيل وابن رشد، انظر ليون جوتييه : "محادثات في مراكش" في (الإسلام والمغرب L'ISLAM ET L'OCCIDENT) ضمن كراسات الجنوب (LES CAHIERS DU SUD)، 1947 ص 73 - 91 .
(AVERROES)

(33) المصدر نفسه، ص 290 - 312 .
[ابن عذاري : البيان المغرب، 78/3 - 108 المعرّب] .

الوثائق التي لم تُنْشر، وهو قاسٍ – ويبدو أنه على حق في ذلك – في حكمه على كفاءة أبي يعقوب العسكرية . ولكن مع ذلك فإن إمبراطورية الموحدين كانت ما تزال قوية وصلبة جدا حينما تولاها إبنه أبو يوسف يعقوب، الذي اتخذ لنفسه فيما بعد لقب المنصور .

يتبارى المؤرخون في التغني بمديح المنصور، ويعتبرون حكمه ذروة قوة الموحدين . وقد كرّس كاتب مغربي معاصر، محمد رشيد ملين، كتابا من الكتب التاريخية القليلة جدا التي أُلّفتْ باللغة العربية حديثا، للحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب الأقصى في عهد المنصور. والواقع أن حكم المنصور الذي امتدّ خمس عشرة سنة كان متألقا جدا .

لم يواجه الخليفة الجديد الصعوبات التي واجهها والده عند ارتقائه العرش، فقد اعتاد الناس الآن على نظام الخلافة الوراثية، وكان أشياخ الموحدين من الثراء والانقياد كعادتهم دوما . وقد بايعه الجيش أولا بعد أيام من وفاة أبيه، ثم بايعه أهل إشبيلية . ولم يَقُمْ عليه أيٌ من أفراد أسرته، مع أنه لم يكن قد سمي وليا للعهد في حياة أبيه . إلا أنه بعد بضع سنوات، بدأ بعضهم يثير شكوكا خطيرة (عام 584 هـ/ 1188م)، والإفتراض هو أن أحدهم قتله العامة في مدينة مراكش، وأعدم إثنان آخران بأمر الخليفة (34). ومهما يكن، فإن شيئا من هذا القبيل ليس بالأمر غير المعتاد بين الأسر الحاكمة الإسلامية التي يكون فيها عادة الأمراء المنحدرون مباشرة من السلالة الملكية كثيري العدد جدا .

أما الأمر الأشدُ خطورة فهو أن أبا يوسف يعقوب اضطُرٌ بعد توليه الخلافة مباشرة تقريبا، إلى أن يواجه نوعا جديدا من الخطر هدد إمبراطوريته تهديدا خطيرا .

---

(34) المصدر نفسه، ص 338 - 340 . [ابن عذارى : البيان المغرب، 3 / 170 - 173 المعرِّب] .

حينما وَهَنَ حكم المرابطين، قام عدة أفراد من أسرة بني غانية، وهي فرع مهم من الأسرة المرابطية الحاكمة، باللجوء إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار)، وأقاموا فيها دولةً صغيرة احترفت الغزو البحري، واعترفوا هناك بسيادة الخليفة العباسي في بغداد . ولم يكن عبد المؤمن مسيطرا على شرق الأندلس، ولم يحاول الاستيلاء عليه . وبعد أن تم لأبي يوسف إخضاع شرق الأندلس، دخل في مفاوضات مع بني غانية الذين وافقوا على إعطائه جزءا من غنائمهم . وكان يراوده الأمل في أن يتمكن يوما ما من حملهم على الاعتراف بسيادته، وقد سعى عبثا إلى إدماجهم في إمبراطوريته إلى حين وفاته (35) .

وحينما وصل نبأ وفاة الخليفة (18 ربيع الثاني 580 هـ/ 29 يوليو 1184 م) إلى جزيرة ميورقة، رأى علي الرئيس الجديد لبني غانية أن الفرصة سانحة لبعث دولة مرابطية جديدة في شمال إفريقيا . فنزل إلى البر في بجاية في 7 شعبان عام 580 هـ/ 13 نوفمبر 1184م، ومعه بعض المراكب وجيش صغير العدد، واستولى على المدينة بغتة، ثم أرسل جنودا إلى مدن الجزائر ومليانة وأشير وقلعة بني حماد، التي استولى عليها جميعا بسهولة، إذ لم يكن في المغرب الأوسط سوى عدد قليل جدا من جنود الموحدين، وهذا دليل على أن البلاد كان يسودها الهدوء تماما . وبعد بضعة شهور، شن الموحدون هجوما مضادا واستردوا بجاية في صيف عام 581 هـ / مايو 1185م، واضطر بنو غانية إلى الفرار شرقا .

وحتى هذه الحادثة لم يكن قد جدّ شيء خارق للعادة، فقد وقعت غارة جريئة ناجحة بسبب عنصر المباغتة، بَيْدَ أن ذلك لم يكن إلا نجاحا قصير الأمد، نظرا للتفاوت الكبير في القوة بين بني غانية وبين الموحدين .

إلا أن عليّ بن غانية لم يظل مكتوف اليدين فوق الأرض الإفريقية. فقد

---

(35) حول هذه الأحداث، انظر ألفريد بيل : بنو غانية (LES BANOU GHANIYA) باريس، 1903.

اكتسب لنفسه حلفاء : بعض سكان المدن الذين كانوا قد احتفظوا بولائهم لبني حماد، لأنهم كبني غانية ينتمون إلى صنهاجة، ولكن الأهم من ذلك أنه جمَع حوله القبائل العربية بالمغرب الأوسط، وهي القبائل التي احتملتْ بشق الأنفس سلطة الموحدين .

وبالرغم من طول المدة التي انقضت على إخضاعهم، فإن هؤلاء البدو الرحل لم يألفوا قط حكم الموحدين الصارم . لذلك فإن الكثيرين منهم انتهزوا دون تردد أول فرصة سنحت لهم للتخلص من هذا النير . وانحاز بعض الجنود العرب في خدمة الموحدين إلى العدو أثناء القتال (36) . وحينما فَرّ ابن غانية شرقا تبعتْه قبائل عربية بكاملها من قبائل المغرب الأوسط، كما أن معظم القبائل العربية في إفريقية أيّدَتْهُ . ونتيجة لذلك، فإن الموحدين لم يضطروا إلى التخلي عن مهمة يائسة فحسب، بل تحتّم عليهم أيضا إخماد ثورة خطيرة داخل إمبراطوريتهم . إن التحالف مع العرب يفسر امتداد مغامرة بني غانية زمنا طويلا، فهي لم تنته تماما قبل عام 630 هـ / 1233 م، في وقت أخذت فيه إمبراطورية الموحدين كلّها في التداعي .

وفي الواقع فإن بني غانية لم يكونوا سوى ذريعة للثورة ضد سلطة الموحدين، ذلك أن قبائل شمال إفريقيا لم تكن قد قبلت أبدا نظاما تَبَيّن أنه صارم وشديد المركزية تماما . وإذا كانت القبائل المستقرة لم تُبدِ استياءها بعد، فإن الجماعات الرحل قد جمحت، ولم تكن القبائل العربية وحدها هي التي انحازت علنا لبني غانية، بل إن جماعات من البربر أيضا كبني مرين في ناحية فقيق، ظلت خارج نظام الموحدين، ورفضت الإذعان لقوانين هذا النظام . وليس من قبيل الصدفة أن نجد ميدان نفوذ الثائرين قد امتد من جنوب تونس وطرابلس الغرب إلى السهول العالية في الجزائر،

---

(36) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية .
انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 103 .
(ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 202 – المعرَب) .

ففي هذه الرقعة الرعوية، لم يجد بنو غانية تسهيلات حربية فحسب، بل لقوا أيضا مساندة جانب من السكان على الأقل .

وبعد لحظة المفاجأة الأولى، كان رد فعل أبي يوسف يعقوب قويا . فقد قاد بنفسه جيشا موحديا قويا، ونجح في إيقاع هزيمة منكرة بأعدائه في الحامة بالقرب من قابس في 9 شعبان عام 583 هـ / 14 أكتوبر 1187 م .

وعلى إثر ذلك الإنتصار، قرر ان يُنزلَ في المغرب الأقصى قريبا من قلب الإمبراطورية عدة قبائل من بين القبائل العربية التي كانت قد تحالفت مع بني غانية. وكان يرمي من وراء ذلك إلى بعث اتصال وثيق بها حتى يتم له الإحتفاظُ بسلطته . كما أنه كان يعتزم استخدام تلك القبائل في جهاده ضد نصارى إسبانيا (37) .

وفي الواقع، فإنه ما إن علم نصارى إسبانيا - وقد شجعهم انتصارهم على أبي يعقوب يوسف في شنترين - بالصعوبات التي كان على خليفة الموحدين مواجهتها في الجزء الشرقي من إمبراطوريته، حتى قاموا بشن المزيد من الهجمات الجريئة على أراضي المسلمين في الأندلس .

ونتيجة لذلك، ولما حسب أبو يوسف يعقوب أنه قد فرغ من بني غانية وحلفائهم، قاد غَزاةً مهمة إلى الأندلس انتهت في وقعة الأرك (انظر أسفله) غربي المدينة الملكية (انظر أسفله) في 8 شعبان عام 591 هـ / 18 يوليو 1195م . وفي تلك الواقعة أحرز المسلمون نصرا عظيما مشهودا، كالانتصار الذي كان قد أحرزه يوسف بن تاشفين في وقعة الزلاقة في عام 479 هـ / 1086م، إلا أنه كان نصرا دفاعيا بحتا، دون أن يعقبه استيلاء على الأراضي . وفي السنتين التاليتين، قام الخليفة بغزوات في أراضي

---

(37) ج. مارسيه : العَرَبُ في المغرب - باريس، 1913.
(ALARCOS)
(CIUDAD REAL)

النصارى حول طليطلة ومجريط وحتى وادي الحجارة، ولكنه لم يضم أيًا من الأراضي الشاسعة التي اجتازها . والجدير بالملاحظة أنه بمناسبة غزوة الأرك، نجح الخليفة بإعلانه الجهاد في الحصول على مساعدات لا من القبائل الموحدية والعربية فحسب، بل أيضا من قبائل البربر المنشقة كبني مرين، ومن قبائل ثائرة سابقا كغمارة. لذلك، فقد كان بوسعه أن يشعر بأن وحدة المغرب كانت – بالرغم من ثورة بني غانية – ما تزال قوية بالنسبة للعدو النصراني .

وقد يستخلص المرء مما تقدم أن أبا يوسف يعقوب قضّى كل سنوات حكمه في ساحة الوغى، يقود عمليات حربية لم تترك له من الوقت ما يكفي لمواصلة شؤون السلم، إلا أن الأمر في الواقع لم يكن كذلك. فهو كأبيه من قبله، كان رجلا مثقفا، أبدى اهتماما كبيرا بالأمور الفكرية. وباستثناء فترة قصيرة (38)، فإنه كان راعياً لابن رشد كما كان والده من قبله، وكثيرا ما كان يستقبل الفيلسوف الذي توفي في بلاطه عام 594 هـ. /1198م.

وهو قبل كل شيء قد قام بتشييد عدد كبير من المباني الضخمة . ففي مراكش بنى مدينة كاملة لإيواء بلاطه وخدماته الإدارية (39)، تُعرف الآن باسم القصبة . وفيها شيد مسجدا عظيما يقوم بناؤه على فكرة جديدة (40)، وأوصل الماء إليه (41) . كما أقام بها بيمارِسْتاناً ليستعمله أهل المدينة (42) .

وفي الرباط، حيث لم يكن يوجد سوى حصن صغير بناه عبد المؤمن، أمر أبو يوسف ببناء سور هائل يحيط بالحصن تزيّنه أبواب ضخمة، ولعله

---

(38) هويثي ميراندا، مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 200 (ابن عذاري : البيان المغرب، 3 /202 – المعرّب)
(39) جاستون ديفردون : مراكش منذ تأسيسها ... الجزء الأول، ص 210 - 223 .
(40) المصدر والصفحات نفسها .
(41) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 143.
(42) المراكشي. المعجب، انظر في موضعه، ص 287 .

كان يعتزم بناء مدينة كبيرة داخل هذه الأسوار (43). وعلى أية حال، فإنه شرع في بناء مسجد ضخم من أكبر المساجد في العالم الإسلامي (44). وفي مدينة إشبيلية يحتمل أن يكون قد أتمّ صومعة الجامع الأعظم المعروفة باسم الدّوارة "خيرالدا" (انظر أسفله) وهي الصومعة التي كان والده قد باشر بناءها (45).

إننا نعرف الكثير من تلك المباني، وكلُّها تتميز بنفس الجلال والروعة اللذين يتميز بهما الفن المعماري الموحدي، إلا أن المرء يرى فيها ميلا إلى الضخامة والخروج على المألوف، فجامع حسّان في الرباط، الذي لم يتم بناؤه أبدا، شاهد حي على هذه النزعة، بخطته غير المألوفة ومقاييس بنائه الهائلة.

كل هذا شيء عظيم ويدل على أن تحسنا قد طرأ بالنسبة لفترة الحكم السابقة، إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن بعض نواحي الضعف كانت تبدو ماثلة تحت المظهر الخارجي الرائع. فالعيب الواضح الأول يكمن في عدم قدرة أبي يوسف يعقوب على حل مشكلة بني غانية. ولا شك في أنه أرغمهم على اللجوء إلى بلاد نائية حيث لا يستطيعون أن يسببوا أذى كبيرا، ولكنهم بقوا هناك وكانوا على استعداد لانتهاز أول فرصة للضرب مرة ثانية - وفي الواقع فإنه لم يتم إدماجهم بالإمبراطورية قط -. ومن ناحية أخرى، فإنه في عهد هذا الملك الفيلسوف بلغ التعصب الموحدي

---

(43) هنري تراس: الفن الأندلسي - المغربي، ص 288 - 290؛
جاك كايبه: مدينة الرباط حتى بداية الحماية الفرنسية، باريس، 1949، الجزء الأول، ص 125 - 149.

(44) جاك كايبه: جامع حسان في الرباط، جزآن، باريس، 1954.
(GIRALDA)

(45) هنري تراس: "الجامع الموحدي في إشبيلية"، في كتاب (MEMORIAL HENRI BASSET) باريس، 1928، الجزء الثاني، ص 253
الحلل الموشية، انظر في موضعه، ص 132.

ذروته، فاليهود الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام رسميا ثم اشتُبه في أنهم يمارسون ديانتهم سرا، أُجبروا على ارتداء أزياء خاصة تبعث نوعا ما على الإستهزاء، لكي يسهل على المسلمين تمييزُهم (46). وفضلا عن ذلك، فإن المذهب المالكي الذي يتبعه كل مسلمي شمال إفريقيا تقريبا حُظر حظرا تاما، مع أنه كان مسموحا به حتى ذلك الحين . ومما زاد الوضع سوءاً، أن مصنفات كثيرة لكبار فقهاء المذهب المالكي أُحرقتْ في الميادين العامة، تماما كما كان المرابطون قد فعلوا قبل قرن من الزمن بأجود كتابٍ للإمام الغزالي(47).

وفضلا عن ذلك فإن المنصور، حسبما يرويه معظم المؤرخين تقريبا، كان قد فقد إيمانه بعقيدة الموحدين، فقد اعتبر فكرة عصمة المهدي فكرة كاذبة، وكان من رأيه أن لا يسترشد المسلمون بغير كتاب الله وسنْة نبيه (48) .إلا أن المنصور أدرك كذلك أن تقليد الموحدين كان من أسلم أسس الإمبراطورية، ولعل هذا هو السبب في أنه أظهر احتراما متزمتا لنظم لم يعترف في الواقع بصحتها أساسا . ويبدو من المرجح أن تطورا مماثلا على الأقل كان جاريا بين النخبة من الموحدين، فكثير من زعماء الإمبراطورية أمضوا شطرا من وقتهم في الأندلس، وهي بلاد كانت قد تأثرت كثيرا بالآراء الدنيوية، كما أنها لم تعتنق قط بإخلاص عقيدة الموحدين. وبعد زيارات كهذه، فإن أولئك الزعماء على ما يُحتمل نزعوا إلى الشك في كل ما يشكل الروح الحقيقية للحركة في زمن ابن تومرت، إن لم يكن إلى رفضها . وأخيرا، كلما قويت قبضة أسرة الخليفة وبعض الأسر الموحدية الكبيرة الأخرى على الدولة، انتاب معظم القبائل – عربية وبربرية على حد سواء – شعورٌ بأنها كانت في الواقع مجرد رعايا تحت

---

(46) الزركشي : تاريخ الدولتين، ص 16. المراكشي : المعجب، ص 304 .
(47) المراكشي : المعجب، ص 278.
(48) المصدر نفسه ، ص 291 - 292.

سلطة تزداد نأيا عنها، بيد أن أولئك الأشخاص ذوي النفوذ الذين أمضوا أعمارهم في القصر بمدينة مراكش أو في الأندلس، كانوا منعزلين تماما عن جماهير البربر الرازحة تحت حكمهم . ولعله من الممكن أن تستثنى من ذلك القبائل الموحدية الأولى التي كانت ما تزال تحظى باهتمام خاص حسب تقليد ابن تومرت، وهو التقليد الذي كان محترما حتى في ذلك الوقت، إلا أن تلك القبائل كانت قليلة العدد جدا في الإمبراطورية، وبالتالي فإنه يُخَيَّل إلى المرء أن ثمة سلطة ظلت قوية جدا، إلا أنه كان ينظر إليها بازدياد من قبل معظم القبائل على أنها سلطة غريبة وظالمة .

وحيث إن بني غانية لم يواجهوا صعوبة في البقاء في شمال إفريقيا طوال حكم المنصور وبعده بمدة طويلة، فللمرء أن يفترض أنهم استفادوا من ذلك الحقد الكامن في نفوسهم، ولعل الخليفة في آخر الأمر كان يحسب أنه أخضع العرب نهائيا بإنزال بعض قبائلهم على مقربة من عاصمته . إن مثل هذا الظن كان معقولا ما بقيت سلطته المركزية قوية، بيد أن العرب الذين استقروا في سهول المغرب الأقصى المحاذية للمحيط الأطلسي لم يبدِّلوا شيئا من مسلكهم السابق، وفي حقيقة الأمر فإنهم لم يندمجوا في سكان المغرب الأقصى إذ إن جماعاتهم القبلية بدلا من أن تختفي، كانت قد استقرت في أراض هبط عدد سكانها بمقدار النصف بسبب الحروب التي دارت رحاها في بداية حكم عبد المؤمن . لذلك، فإن هذه القبائل العربية كانت تشكل دائما قوة كامنة ومستعدة لإثبات وجودها كلما سمحت الظروف بذلك . وقد ظلت هذه القبائل وفيّةً لنزعاتها الاستقلالية، وخلق وجودها مصدرا إضافيا من مصادر الاضطراب في المغرب الأقصى، مما أدى إلى قيام الفوضى في نهاية الأمر . وفضلا عن ذلك، فإن هذه القبائل اشتغلت بالرعي، وهو عمل مارسته منذ قرون في منطقة كان يمكن أن تقوم فيها فلاحة مُجْزية للأرض. وهكذا فإن الخليفة أدخل بنفسه في قلب إمبراطوريته عاملا من عوامل الفوضى السياسية والاقتصادية . ويؤكد

مؤرخ متأخر (49) أن الخليفة المنصور أدرك خطأه قُبَيْلَ وفاته، وأعلن عن أسفه للقرار الذي كان قد اتخذه . إن هذه الحقيقة ليست أكيدة، ولكنها تدل على أية حال على أن أهل المغرب الأقصى في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، اعتبروا وجود القبائل العربية بينهم سببا من أسباب اختلال الأمن .

ومع أن أبا يوسف يعقوب كان شابا- فقد وُلد في عام 554 هـ /1160 أو 1161 م- فإنه لم يكن يتمتع بصحة جيدة . وقد مرض في نهاية عام 594 هـ/ 1198 م، ولما شعر بدنو أجله استدعى أقاربه وكبار رجال دولته وخدمه، لكي يزودهم بآخر وصاياه (50) . وقد أوصاهم بالاتحاد حول ابنه وولي عهده، وأن يلتزموا أوامر الله كما وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وأن يحسنوا معاملة العرب الذين كان قد أنزلهم في المغرب الأقصى، وأن يتواصوا خيرا "بالأيتام واليتيمة "، أي بجزيرة الأندلس وأهلها . وكانت وفاته في قصره الجديد في مدينة مراكش في ليلة 22 ربيع أول عام 595 هـ /22 - 23 يناير 1199 (51) .

حينما توفي المنصور، كانت إمبراطورية الموحدين ما تزال إمبراطورية عظيمة وجميلة وقوية، إلا أن ابنه لم يتمكن من السيطرة عليها، وليتسنى له ذلك، كان ضروريا أن يظهر بمظهر الرجل العظيم كآبائه، إلا أنه لم يكن كذلك . إن المؤرخ عبد الواحد المراكشي كان يعرف الخليفة الجديد محمد الناصر معرفة شخصية، وقد ترك لنا الوصف التالي عنه - وهو ليس وصفا تقليديا كمعظم الأوصاف التي نجدها في كتب التاريخ المغربية - : "كان أبيض، أشقر شعر اللحية، أشهل العينين، أسيل الخدين، حسن القامة، كثير

---

(49) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 152.

(50) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 206 - 212. (ابن عذاري : البيان المغرب، 3 /206 - 209 ، المعرَب) .

(51) هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، انظر في موضعه، الجزء الأول، ص 385. [الحلل الموشية ص 133. ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 211 المعرَب] .

الإطراق، شديد الصمت، بعيد الغور. وكان أكبر أسباب صمته لثغاً بلسانه، حليما، شجاعا، عفيفا عن الدماء، قليل الخوض فيما لا يعنيه جدا، إلا أنه كان يبخِل أولاده» (52). ويضيف مؤرخ آخر كتب بعد ذلك التاريخ هذه الصفة لشخصيته، لم يكن قادرا على أن يكلل أعماله بالنجاح دون جهد كبير، وأدار إمبراطوريته بنفسه معتمدا في ذلك على مشاعره الشخصية فقط (53). وباختصار، فإنه كان رجلا هيّابا، متكتما، ولعله كان سلطانا ذا لهجة آمرة، دون أن تكون له الألمعية التي يرجع إليها إلى حد كبير النجاح الذي أحرزه أسلافه. وفضلا عن ذلك، فإن محمد الناصر كان شابا صغير السن جدا حينما ولي الخلافة، إذ ولد في آخر عام 576 هـ/ ربيع عام 1181 م (54)، وبالتالي فإنه كان أسهل تأثرا ببيئته وبكبار معاونيه .

ولعل التركيز على شخصية السلطان يبدو مفرطاً حينما نجد أن عوامل قوية أخرى قد تكون كافية بطبيعتها لتفسير مصير إمبراطورية الموحدين. ومع أننا لا نقصد التقليل من أهمية تلك العوامل، فإن خلفاء الموحدين بعد عبد المؤمن تمتّعوا بسلطة كبيرة جدا، بحيث إن الشخصية كانت ذات أهمية عظيمة، خصوصا في وقت كانت فيه النظم الراسخة للإمبراطورية مازالت قادرة على التحكم في القوات المناهضة للسلطة المركزية . لذلك يبدو لنا من المحتمل أن شخصية الخليفة الجديد (وهو أول خليفة افتقر إلى الألمعية والنفوذ) عجلت التطور، وهذا هو السبب الذي من أجله نُعيرها هذه الأهمية.

ومن الطبيعي أن يحاول أعداء إمبراطورية الموحدين استغلال كل فرصة ممكنة عند تغير الحكام . ولنصرف النظر هنا عن بعض حركات التمرد التي حدثت في منطقتي السوس وغمارة المعروفتين بعدم الاستقرار، فقد أخمدت

---

(52) المراكشي : المعجب، ص 307

(53) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 158.

(54) المراكشي : المعجب، ص 307 .

تلك الحركات ولو أن ذلك لم يتم دائما بيسر . غير أن الأمور في إفريقية كانت تختلف عن ذلك تماما، ففضلا عن بني غانية والقبائل العربية، برز هناك ثائر جديد هو محمد بن عبد الكريم الرجراجي الذي قاتل العرب أولا، ثم وقف في وجه كل من الموحدين وبني غانية، واحتل المهدية لبعض الوقت وحاصر مدينة تونس، وأخيرا قُتل من قبل يحيى بن غانية في عام 598هـ /1201 أو 1202 م . وحتى لو نظرنا إلى قيامه على أنه حدث عرضي، فإنه يمثل على الأقل أحد أعراض عدم الاستقرار القائمة في إفريقية . وفي الواقع، فإنه بعد أن تخلص بنو غانية من الرجراجي، استولوا على مدينة تونس، وعلى كل إفريقية تقريباً في غضون عام 598 هـ / 1202 م .

وفي بادىء الأمر، هُزمت قوات الناصر - التي لم تكن تفي بالغرض- على أيدي الثائرين . وينبغي أن نضيف أن كثيرين من رؤساء الموحدين أبدوا ترددا في منازلة بني غانية (55). وأخيرا جهز الخليفة في عام 601 هـ /1204م حملة كبيرة، وقد أحسن إعدادها على غرار حملة عبد المؤمن في عام 554 هـ/1159 م، وتوجه نحو الشرق في منتصف جمادى الآخرة عام 601 هـ/ فبراير 1205 م (56). ويبدو أن العمليات تمت بنظام كبير، وقوات ضخمة وعتاد حربي لا يُستهان به . وقد فرّ أعداء الخليفة من تونس التي تم الاستيلاء عليها دون قتال، وحوصرت المهدية ، وتمكن الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الزعيم الموحدي الكبير أبي حفص عمر إنتي، من إلحاق هزيمة ساحقة بالثائرين على مقربة من قابس، في شهر صفر من عام 602 هـ / أكتوبر 1205م، واستسلمت المهدية في جمادى الأولى من عام 602 هـ / يناير 1206 م . وهكذا فقد تمت إعادة سلطة الموحدين على إفريقية .

---

(55) ابن خلدون : كتاب العبر، انظر في موضعه، 6 / 519 - 520.

(56) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 229 . [ابن عذارى : البيان المغرب، 219/3 المعرّب] .

وقد أفاد الخليفة درسا من الأزمة، إذ أدرك أن يحيى بن غانية هُزم ولكن شأفته لم تُستأصَل، وأنه يستطيع بسهولة أن يستغل الوضع إذا سنحت فرصة أخرى . ولما كانت إفريقية نائيةً عن عاصمته، فإن الخليفة رأى أن الجهة تحتاج إلى جهاز عسكري وإداري خاص لكي يتسنى له أن يعالج بصورة مستقلة وعلى وجه السرعة أي خطر قد يهددها . لذلك ولّى عليها عبد الواحد الحفصي الذي أبدى لتوه كل نشاط وكفاءة، ومنحه سلطات واسعة (57).

وهكذا فإن الناصر خلق من تلقاء نفسه ولاية مستقلة إستقلالا ذاتيا في امبراطوريته. وقد كان مصيبا في ذلك في حينه، إذ إن خطر قيام ثورة من جانب بني غانية ظل أمرا واردا، كما أن عبد الواحد دلل على ولائه له. ولكن يا له من إغراء لوالٍ طموح تحت تصرفه جيش قوي، وسلطات إدارية واسعة، وموارد مالية كبيرة ! وفي الحقيقة، فإن الخليفة دون أن يعي ذلك، كان يُعِدُّ لتمزيق إمبراطوريته التي اعتبرها آنذاك من الضخامة بحيث يتعذر عليه حكمها منفردا .

وفي الوقت الذي كان فيه الخليفة يسوّى أمر إفريقية، اغتنم الملوك النصارى في الأندلس فرصة غيابه فأخذوا في مهاجمة أراضي المسلمين. فعَل ذلك أولا ملك أرغون، ثم بعد عام 605 هـ /1209م، ملك قشتالة . لذلك فإن الناصر اضطر إلى مغادرة مدينة مراكش، حيث كان يقيم بعد عودته من إفريقية لكي يصد غارات النصارى. وبعد أن استنفر الخليفة الناس للجهاد، جهز جيشا قويا في رباط الفتح، وجاز بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في

---

(57) يؤكد التجاني (رحلة التجاني، تونس ، ص 360 - 362) وابن خلدون (كتاب العبر، انظر في موضعه، 6 / 583) أن عبد الواحد لم يقبل المنصب إلا بعد إلحاح شديد ، مشترطا أن تكون ولايته لمدة ثلاث سنوات، وأن تُطلق يدُه للعمل بحرية تامة تقريبا . أما صاحب (البيان المغرب) فلا يذكر شيئا من ذلك، ولكنه يعترف بأن الوالي الجديد تمتع بسلطات موسعة (هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 241). [ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 225 المعرب] .

شهر ذي الحجة من عام 610 هـ / مايو 1211م، ونزل إلى ميدان القتال بعيد ذلك. وفي أثناء زحفه تكشّفتْ عيوب خطيرة في الإدارة العسكرية للموحدين، فقد تبيّن أن عملية تموين الجيش كانت دون المطلوب . وكان غضب الخليفة لهذا النقص كبيرا، حتى إنه أمر بعزل موظفين كبيرين من منصبيهما - ثم أمر بعد بإعدامهما (58) - وفي ذلك دليل على التقصير الإداري، وعلى سرعة الغضب المفرط من جانب الناصر .

كانت بداية الحملة بداية جيدة جدا، ففي مستهل شهر ربيع الآخر / سبتمبر استولى الموحدون على قلعة شَلْبَطرَة (انظر أسفله) إلا أنه نظرا لحلول فصل الشتاء، أُوقفت العمليات الحربية . وحينما أقبلت أشهر الصيف، تحرك الجيش النصراني لملاقاة الموحدين، وكان لا يقتصر على عناصر قشتالية فحسب، بل ضم كذلك عناصر أرغونية، وجماعات عسكرية من وراء جبال البورت (البرانيز). ولم يلبث الفرنسيون أن تخلوا عن القتال، وتقدم الإسبان وحدهم لملاقاة جيش المسلمين الذي كان مرابطا في جبال الشارات (انظر أسفله) يحرس الممرات الرئيسية . وبمساعدة أحد الرعاة اجتاز الإسبان ممرا تُرك دون حراسة ، وكان يُعتبر اجتيازه مستحيلا، ودارت رحى المعركة في العِقاب (انظر أسفله) في يوم 15 صفر عام 609 هـ /16 يوليو 1212 م. وبعد قتال عنيف في أول الأمر، تحول الصراع فجأة إلى هزيمة منكرة للمسلمين الذين فروا أو سقطوا في ساحة القتال (59) .

وينبغي أن لا تُصدّقَ حرفيا الأرقام المبالغ فيها التي ذكرها النصارى لتعظيم انتصارهم، إلا أنه من المؤكد أن خسائر المسلمين كانت فادحة جدا.

---

(58) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 261 - 263 . [ابن عذاري - البيان المغرب، 225/3- المعرب] .

(SALVATIERRA)

(SIERRA MORENA)

(LAS NAVAS DE TOLOSSA)

(59) حول وقعة العقاب، انظر هويثي ميراندا : المعارك الكبرى لحرب الإسترداد . (LES GRANDES BATALLAS DE LA RECONQUISTA) مدريد، 1956، ص 219 - 327 .

ومع ذلك، فإن هذا الانتصار لا ينطوي على النتائج العسكرية التي كثيرا ما تُعزى إليه، كما أوضح ذلك بحق الباحث الإسباني هويثي ميراندا (60) . فإن جيش الموحدين في الأندلس لم يُقْضَ عليه قضاء مبرما، فضلا عن أن قوات الموحدين المسلحة عموما لم تشارك في القتال . وبالإضافة إلى ذلك، فإن النصارى بعد انتصارهم لم يتمكنوا من التعجيل بشكل ملحوظ في عملية استرداد شبه جزيرة إيبرية . على أنه من المهم عدم التقليل من قيمة وقعة العقاب باتخاذ وجهة نظر بعيدة في الاتجاه الآخر . فقد كان انتصار النصارى أول انتصار يحرزونه ضد مسلمي الأندلس والمغرب تحت قيادة سلطانهم، ولهذا السبب، فإنه اكتسب قيمة رمزية، فلم يكن جيش الموحدين هو الذي هزم، بل إن الهزيمة لحقت بإمبراطورية الموحدين تحت إمرة الخليفة . وفي ذلك الوقت، اعتقد الكثيرون أن في الأمر قضاء وقدرا، وكان القضاء والقدر إلى ذلك الحين في جانب المسلمين .

أما من وجهة نظرنا، فإن الملابسات التي تم فيها إحراز النصر هي أكثر دلالة . فحالما تمركز جيش الموحدين في إفريقيا، ظهرت نواقص في النظام الإداري. ثم لما تمت ملاقاة النصارى الذين دفعهم وضعهم اليائس، انهار جيش الخليفة في ساحة القتال وكأنه فجأة بلغ نهاية طاقته العصبية وقوة احتماله، ففر جميع الجند أو جُلُّهم، بما فيهم الخليفة . وكان ذلك دليلا على أن أحد اللوالب الأساسية للجهاز الموحدي قد انخرم، ولم يصمد بربر ابن تومرت أو عبد المؤمن المعروفون بالإقدام والاستماتة في القتال . فقد استنفدت طاقتهم سيطرتهم الطويلة على إمبراطورية شاسعة، وأخذت تبدو عليهم أمارات الضعف .

ولعل زعماء الموحدين أنفسهم كانوا مسؤولين عن هذه الهزيمة التي حلّتْ بالمسلمين، فقد أصبحوا أثرياء، وأرادوا أن ينعموا برخائهم في سلام،

---

(60) هويثي ميراندا، التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 428 - 429 .

لذلك لم يعد لديهم كما كان الحال في الماضي، ميل إلى المخاطرة . وبالإضافة إلى ذلك، فلعل الجنود سئموا حروبهم المتواصلة في إفريقيا والأندلس . وإلى جانب المصامدة الذين كانوا في السابق قد سيطروا تقريباً على جيش الموحدين، يُحتمل أن تكون قد ألحقت بهذا الجيش أعداد كبيرة من جماعات غير متجانسة، كبعض قبائل البربر المخلصة نوعا ما، والجنود السودان والغُزّ الوافدين من المشرق، والأندلسيين من شبه جزيرة إيبرية . وهكذا فإن جيش الموحدين كان هائلا من حيث العدد، إلا أنه كان متعدد الجنسيات ويفتقر إلى التماسك . وليس من الممكن تحديد نصيب كل من هذه العناصر في ضعف الموحدين العسكري، إذ إن المعلومات المتوفرة لدينا - وهي معلومات متقطعة ومشكوك في صحتها - لا تمكننا من التوصل إلى أية استنتاجات أكيدة . ومهما يكن من أمر، فإن هزيمة وقعة العِقاب أظهرت دون أدنى شك أن نظام الموحدين العسكري لم يَعُدْ على ما كان عليه في زمن عبد المؤمن، وحتى في زمن يعقوب المنصور .

ومن الخطأ القول إن وقعة العِقاب أدت إلى نهاية إمبراطورية الموحدين، فلم يكن ذلك الفشل الوحيد مدمرا، إذ بقيت الإمبراطورية متألقة وصلبة لسنوات بعده، ولم تكن هزيمة العِقاب سوى أحد الأعراض، بل العرض المهم الأول للعلة الداخلية التي أحدثت تآكلا داخل جسم الإمبراطورية . ولعل ما كان أكثر إنذارا بالمرض هو أن الهزيمة لم تُثِرْ أي رد فعل عاطفي في المغرب الإسلامي، بينما كان حدث من هذا القبيل في الأزمنة السابقة يثير الشعور بأنه يترتب على الدولة - وقد مُنِيَ المسلمون بمثل هذه الهزيمة الشنيعة على أيدي النصارى - أن تثأر لهم . لكن الأمر كان على العكس من ذلك، إذ يبدو أن إمبراطورية الموحدين بعد هزيمة وقعة العقاب قد ابتليت باستسلام وفتور مغمَّيْن يكشفان عن الوضع المعنوي السائد بين رعايا الناصر . كذلك فإن الخليفة ضرب مثلا اقتدي به، إذ إنه لم يلبث بعد الهزيمة أن عاد إلى مدينة مراكش حيث قضى عاما في خمول، إلى أن توفي في أوائل شهر شعبان من عام 610 هـ / أواخر عام 1213 م، وهو في السابعة

والثلاثين من عمره . وتختلف روايات المؤرخين اختلافا كبيرا حول ظروف وفاته، فهل مات مسموما؟ (61) أو قتل عرضا على أيدي عبيده السودان (62) ؟ أو توفي بسبب عضةِ كلب ؟ (63) أو أصيب بنوبة صرع ؟ (64) وليس ثمة ما يرجح إحدى هذه الروايات على الأخرى .

وهكذا كان لإمبراطورية المصامدة، بقيادة رجال ذوي كفاءة غير عادية لمدة تزيد على الخمسين عاما، حضارة متقدمة جدا . وكانت هذه الإمبراطورية قد تلقّتْ دفعا من حركة الإصلاح الموحدية، التي أدت إلى ازدهارها . وثمة فترات تكون فيها إحدى الجماعات البشرية تنتظر حافزا يحرك فجأة طاقاتها الكامنة، فتأخذ في تنمية حضارة مزدهرة . وكان ابن تومرت قادرا على أن يهيء ذلك الحافز، كما عرف عبد المؤمن كيف يوجهه، وقد لقي كلاهما عونا من البربر في الجبال، واستطاعا أن ينقلا إليهم إيمانهما، وأظهر هؤلاء صفات كثيرة مدهشة . وفي الواقع ينبغي أن لا يغرب عن البال أن أولئك الرجال كانوا جميعا من البربر، وكلهم أو جلهم ولدوا في جبال الأطلس الأعلى، كما أن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها هذا الوضع هناك، منذ الفتح الإسلامي . وإلى ذلك الحين، كان باستطاعة رؤساء البربر أن يقاتلوا بنجاح أحيانا ضد المغيرين من المشرق، أو أن يساعدوا زعيما من المشرق لتأسيس مملكة عظيمة. هكذا كانت الحال بالنسبة لإدريس الأول وإدريس الثاني في المغرب الأقصى، ولعبد الرحمن بن رستم في تاهرْت، وللفاطميين في إفريقية. إلا أن بني زيري في إفريقية وبني حماد في المغرب الأوسط والمرابطين في المغرب الأقصى، أثبتوا أنهم قادرون على تأسيس دول قوية، لكن واحدة من هذه الدول لم تبلغ من العظمة والروعة

---

(61) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 160 .
(62) ابن خلكان : وفيات الأعيان، 4 / 346 .
(63) الحميري : الروض المعطار، ص 138 . الزركشي : تاريخ الدولتين، ص 19 .
(64) المراكشي : المعجب، انظر في موضعه، ص 323 .

ما بلغه الموحدون . ذلك أن حركة الموحدين لم تنتشر في سائر أنحاء المغرب والأندلس فحسب، بل حظيت كذلك بتألق خارق للعادة. ففي فنها المعماري وأعمالها الفكرية على حد سواء، حملت إمبراطورية الموحدين عاليا مشعل الحضارة الإسلامية التي اعتراها الوَهَنُ باضطراد منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وفي الواقع، فإنه لا شك في أن إمبراطورية الموحدين لم تكن فحسب وحدة سياسية ذات حجم غير عادي في المغرب على الأقل، بل كانت أيضا شكلا جديدا من أشكال الحضارة الإسلامية أينع بعد قرون من النضج البطيء . وكان للإسلام والعرب نصيبهما في هذه الحضارة، إذ إن حركة الموحدين انبثقت عن الدين الإسلامي، كما أن اللغة والثقافة العربيتين سرعان ما اكتسبتهما النخبة من الموحدين . إلا أن البربر كذلك قاموا بدور مهم في تلك الحضارة، وقد كان ذلك واضحا في التقشف والتواضع، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك حتى الخشونة التي يجدها المرء في ما أنجزه الموحدون، وقد لطَّف من حدة هذه الخشونة ما تحلى به أهل الأندلس من رقة واعتدال وفطنة . وكان من نتيجة توحيد كل هذه التقاليد والأمزجة، أن تسنى الجمع بين القوة والقيمة الفكرية، والميل إلى نوع معين من الجمال . وهذه بالطبع هي العناصر الرئيسية في أية حضارة عظيمة .

الفصل الثالث

الضعف والانهيار

إن هذه الإمبراطورية التي أخذت في التعثر كانت في أمسّ الحاجة إلى رئيس قادر على أن يعيدها إلى قوتها السابقة. ولسوء الحظ فإن الخليفة الموحدي الخامس، يوسف المستنصر، لم يكن زعيما قويا أو موهوبا، إذ تبيّن ضعفه في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده في شهر شعبان عام 610 هـ / ديسمبر 1213 م . فقد كان شابا في السادسة عشر من عمره على الأكثر، ولعله كان صبيا في سن العاشرة – ومعلوماتنا حول هذه النقطة ليست أكيدة (1) – . وكان مولعا بالملذات (إذا كان لنا أن نأخذ بأقوال بعض المؤرخين) لم يبرح مدينة مراكش بالمرة تقريبا (2)، ولعل السبب في ذلك أنه لم تكن لديه فكرة واضحة جدا عن مسؤولياته وعن الأخطار التي أخذت تُحدق بالدولة . ويُجمع المؤرخون على أن عهده كان عهد سلام، ولعله كان آمنا أكثر من اللازم، إذ لو كان الخليفة الجديد من طراز آبائه لبارح قصره بصورة أكثر ولجَابَ إمبراطوريته التي كانت قواعدها آخذة في التداعي وهي في حاجة إلى التعزيز . ولم يكن هدوء إمبراطورية الموحدين ظاهرة طيبة في وقت كان فيه النصارى يحاولون توطيد انتصارهم في وقعة العقاب، وبنو غانية في حركة دؤوب، وقد أخذت قبيلة بني مرين – وكانت إلى ذلك الحين ما تزال هادئة وراء التخوم الصحراوية للإمبراطورية – تتقدم في ناحية تارة وتُوقع الهزيمة بجنود الموحدين الذين حاولوا دفعها .

---

(1) يذكر المراكشي وابن خلدون وابن خلكان أنه كان في الخامسة عشر من العمر، إلا أن مصادر أخرى (البيان المغرب، الحلل الموشية، الذخيرة السنيّة) تذكر أنه كان لايتجاوز العاشرة من العمر. انظر بشأن التفاصيل هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 275 ، الحاشية رقم 1 .

(2) [ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 247 – المعرِب] .

وفي الحقيقة، فإن حكم المستنصر يتميز بسلسلتين من الأحداث تبينان مدى عمق التحول الذي مرت به فعليا إمبراطورية الموحدين . فقد كان الخليفة أولا صغير السن جدا بحيث تعذر عليه أن يحكم بمفرده، لذلك لم يلبث أن وقع تحت تأثير وزرائه . وإذا كان أفراد أسرة الخليفة يحظون بهيبة حقيقية بين كافة الوجهاء والقبائل، فإن الوزراء الذين ظلت سلطتهم غير ثابتة كانوا محسودين، وكثيرا ما وجدوا أنفسهم موضع كراهية لكونهم أفرادا من قبيلة ممقوتة، وكانوا يميلون إلى إذلال خصومهم من القبائل الأخرى أو التخلص منهم . وفضلا عن ذلك، سوف نلاحظ أن الوزراء كانوا يتطلعون إلى الاستئثار بالسلطة الفعلية ولا يترددون في خلع الخليفة الحاكم أو تعويض خليفة متوفى بآخر يسهل التحكم فيه، أي طفل أو رجل متقدم في السن يقع اختياره .

أما الحدث الثاني فهو ظهور بني مرين (3) . وبنو مرين قبيلة رعوية من البربر، اضطرّت بعد وصول البدو من العرب إلى المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى ترك مواطنها السابقة في منطقة بسكرة، والاستقرار في السهول العالية حول واحة فيكيك، ولما تولى الموحدون السلطة في شمال إفريقيا، لم تقبل هذه القبيلة العيش تحت سلطانهم، فأذن الموحدون لها بالإقامة على تخوم الصحراء . وهذا يدل في جملة مايدل، على أن إمبراطورية الموحدين في المغرب الأوسط لم يتجاوز سلطانها المنطقة الساحلية المعروفة بالتل . وهناك على أطراف الصحراء عاش بنو مرين حياة لم يقع فيها ما يجدر ذكره، يرعون ماشيتهم بين منطقة فيكيك والوادي الأوسط لنهر ملوية. فكانت قبيلة خاملة الذكر، متوسطة العدد، حريصة على حريتها . وفي مناسبة واحدة فقط كان بنو مرين على استعداد للتعاون مع الموحدين،

---

(3) حول بداية بني مرين، انظر بصورة رئيسية (الذخيرة السنية) لمؤلف مجهول الإسم، تحقيق ابن شنب، الجزائر، 1921 . وانظر كذلك ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 184.

وذلك حينما استنفر الخليفة المنصور الناس للجهاد ضد الكفار النصارى، وهو الجهاد الذي كُلِّل بانتصار الأرك . آنذاك أمدّ بنو مرين السلطان بقوة من المحاربين تحت إمرة رئيسهم الأعلى مَحْيَو الذي توفي متأثرا بجراح أصيب بها في وقعة الأرك .

وبعد سنة من هزيمة المسلمين على أيدى النصارى في وقعة العقاب، ظهر بنو مرين فجأة في المنطقة الجبلية بمحاذاة الساحل، إلى الشمال من نهر ملويّة، وكان في نيتهم بوضوح الاستقرار في جهة كانت فيها سلطة الموحدين إلى ذلك الحين أمرا مُسلَماً به . فهل حدث أمر نجهله جعلهم يرحلون عن مراعيهم المعتادة، كحدوث جدب مثلا ؟ ليس هذا بالأمر المستحيل، بَيْدَ أن أحدا من المؤرخين لا يذكر حدوث شيء من هذا القبيل . كما يجوز أنهم أحسُّوا، بفضل استعدادهم الفطري كأبناء صحراء، بأن إمبراطورية الموحدين اهتزت من جذورها اهتزازا عميقا، وكانوا في وضع يمكِّنهم من تجربة حظهم بالاستقرار في أراض أصلح من أراضيهم، ويبدو أنه لم تكن لديهم مطامح سياسية آنذاك . فكانوا والحالة تلك لا يسعَوْن إلا إلى تحسين أحوالهم المعيشية . ومهما يكن من أمر، فإن ثمة تطابقا زمنيا مدهشا بين هزيمة العقاب وظهور بني مرين في أراض لم يكن يُسمح لهم من قبل قط بالدخول إليها، ولم يكونوا قد أبدوا اهتماما بها .

وهكذا فإن عهد المستنصر لم يكن خاليا من المشاكل، ومن الواضح أن الضعف الداخلي لإمبراطورية الموحدين أصبح خلال هذه الفترة أكثر خطورة واستشراء، ولو أن ذلك لم يظهر فورا . وكما جاء في الإنجيل : «ويل لمدينةٍ أميرُها طفل ! » .

وما إن توفي المستنصر في مدينة مراكش في عام 620 هـ/ 1224 م، (بسبب حادث كما يبدو) حتى أخذت إمبراطورية الموحدين تتصدع . وأصبح انهيار سلطتهم تاما بحلول عام 646 هـ/ 1248 م، حينما توفي

الخليفة السعيد في منطقة تلمسان أثناء محاولته إعادة بناء إمبراطورية آبائه . أجل، احتفظ الخلفاء بشيء من السلطة في مدينة مراكش حتى عام 668 هـ /1269م، وبقي أثر من سلطة الموحدين في تنمل حتى عام 674 هـ /1275م، إلا أن هؤلاء كانوا مجرد «ملوك صغار» على رأس ممالك صغيرة جداً لا يمكن مقارنتها بممتلكات عبد المؤمن أو يعقوب المنصور.

وليس من المجدي أن ندرس هذا الانهيار السريع بالتفصيل، إذ إن هذه المهمة اضطلع بها بكل دقة الباحث الإسباني أمبروسيو هويثي ميراندا (4) . لكن الجدير بالملاحظة هو أن فترة التفسخ هذه شبيهة بفترات الانحطاط لدولة كبيرة، وتتميز بقدر كبير من الفوضى وبوقوع أحداث مؤسفة كثيرة . وبدلا من سرد بيان مفصل بالحقائق، سنحاول تحليل الكيفية التي أدت إلى ذلك، لمعرفة الوسيلة التي تم عن طريقها تقويض وحدة الشمال الإفريقي بمثل تلك السرعة . ولكي يتسنّى إدراك الأسباب، يستحسن تقديم عرض موجز للأحداث .

بعد وفاة المستنصر مباشرة أُتِيَ إلى الحكم برجل متقدم في السن، لا يقل عمره عن ستين سنة، وليس له أي طموح، هو عبد الواحد الملقب بالمخلوع، وقد تم ذلك في مدينة مراكش على أيدي أشياخ الموحدين الذين حسبوا أنه سيكون أداة طيّعة في أيديهم (5). وكان الباعث على هذا التعيين واضحا، فإن الأسر الموحدية الكبيرة اقتنعت بأن زمن أسرة الخليفة قد ولّى ، وبأنها تستطيع التحكم في مصائر الإمبراطورية بعد أن عانت من سيطرة عبد المؤمن وعقبه مدة تربو على الثمانين عاما. إلا أن

---

(4) هويثي ميراندا : التاريخ السياسي لإمبراطورية الموحدين . انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 51 وما بعدها، وانظر كذلك مقاله بعنوان : "حكم الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون"، مجلة هسبريس، العدد 41 (1945)، ص 9 - 45 .

(5) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 287 - 288 . (ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 247 - 248) .
[ورد اللقب في النص الإنجليزي المترجم «المسلوخ»، وهو خطأ واضح – المعرِّب] .

أسرة الخليفة كانت حتى ذلك الوقت لا تزال تحظى بالمحبة بين الكافة، وكان يتعذّر الإطاحة بها عن العرش. ولحسن الحظ، فإن أفراد هذه الأسرة كانوا من الكثرة بحيث يتسنى اختيار شخص لتولي الحكم لا يحدث ضررا بالمرة، وأول زعيم وقع عليه الاختيار شخص مسن، وكان الحكام الذين جاؤوا بعده أطفالا .

وإذ لم تقع استشارة أشياخ الموحدين في الأندلس بشأن اختيار الخليفة الجديد، وكان أحد هؤلاء الأشياخ قد فقد حُظْوَتَهُ بتحريض من أحد زعماء مدينة مراكش، فإنه شرع في البحث عن خليفة آخر ووجد ضالّته في شخص والي مرسية، العادل، أحد أفراد أسرة عبد المؤمن، وهو في الواقع احد أبناء المنصور (6)، وبالطبع فإن الخليفتين لم يتفقا، فقام بينهما صراع التحمت فيه عساكرهما بقصد الاستيلاء على مدينة مراكش عاصمة الإمبراطورية . بالإضافة إلى ذلك، ظهر مُطالب ثالث بمنصب الخلافة هو عبد الله البيّاسي في الأندلس حيث كانت ترابط عساكر قليلة، وحاول الحصول على مساندة ملوك النصارى (7) .

ولم يطل الأمد بالخليفة العادل فاغتيل في مدينة مراكش بعد استيلائه عليها، كما كان قد حدث لمنافسه المُسِن التعس . ثم ثارت عدة قبائل من بينها قبيلة الخُلْط العربية، وكانت هذه أول مرة يشارك فيها العرب في الصراع على السلطة ، إلا أنهم بعد ذلك شاركوا بصورة مستمرة ومطردة وقاموا بدور مهم في جميع الأحداث التالية تقريبا .

وبعد وفاة العادل مباشرة، طالب بالخلافة شخصان أحدهما في مدينة مراكش، والآخر في الأندلس. أما الأول فكان شابا في السادسة عشرة من عمره أتى به إلى الحكم زعيما تنمل وقبائل هِنْتاتة - وهما من أبرز

(6) المصدر نفسه، ص 289 والحاشية ل . [ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 248 المعرّب].

(7) المصدر نفسه. ص 292 . [ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 249 - 250 المعرّب].

شخصيات الموحدين - لكي تتسنى لهما السيطرة على الدولة، معتقدين أن في وسعهما أن يفعلا به ما يشاءان . ويبدو أن هذا الخليفة - واسمه يحيى - لم تتوفر فيه أية خصلة سوى المثابرة العنيدة في المطالبة بحقه في العرش . وأما الرجل الثاني - أبو العلاء إدريس - الذي تلقّب بالمأمون، فهو ابن آخر للمنصور، يظهر أنه لم يكن ضعيف الشخصية. حاول الحصول على مساندة نصارى إسبانيا، ويبدو أنه دفع ثمنا باهظا بعض الشيء للحصول على بضع مئات من العسكر وضعهم ملك قشتالة تحت تصرفه. ومن بين التنازلات التي قدمها المأمون أنه قطع على نفسه عهدا بالإذن للنصارى ببناء كنيسة في مدينة مراكش يُسمح لهم فيها بممارسة ديانتهم دون قيد، بل يسمح لهم بضرب نواقيس الكنيسة أيضا، مع ما في ذلك كله من مخالفة للعرف الإسلامي (8) .

فهل ثمة صلة بين هذه السياسة الخاصة بالتنازل المفروض على أساس المعاملة بالمثل، وبين إجراء آخر مهم جدا اتخذه الخليفة المأمون نفسه ؟ ذلك أن جميع المصادر المتوفرة تتفق على أن المأمون أبطل إحدى عقائد الموحدين، ويذكر مؤرخ ذو مكانة عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أن المأمون عبّر بنفسه عن معتقده في كتاب رسمي يقال إنه كتبه بخط يده ووجّهه إلى الفقهاء والرسميين في الإمبراطورية خط فيه : «ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق وأن لامهدي إلا عيسى بن مريم ... وتلك بدعة قد أزلناها ... وقد أزلنا لفظ العصمة عمّنْ لا تثبت له عصمة . فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتثبتُ وتمحى ولا تثبت، وكان سيدنا المنصور رضي الله عنه همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجّله إليه أجله » . ويضيف المؤرخون أن الخليفة كتب بخط يده إلى بلاده كلها بإزالة اسم المهدي بن تومرت من السكة والخطبة، وبالتالي

(8) المصدر نفسه، ص 313 والحاشية ل. [ابن عذاري : البيان المغرب، 281/3، المعرّب]

إزالة تلقبه بالمعصوم . وفي الوقت نفسه، أسقطت بعض عبارات بلسان البربر كانت ما تزال تستعمل في صلاة الجمعة (9) .

ولا يذكر المؤرخون لسوء الحظ أية معلومات عن الأسباب التي حدت بالمأمون إلى اتخاذ هذه التدابير غير العادية . فهل كان ذلك بوحي من إيمانه الشخصي أم برًا بوالده، إذ أكد أن والده كان يحمل الفكرة نفسها ولكنه لم يجد فرصة لإعلانها ؟ أم هل كان لديه بالأحرى هدف سياسي، وهو الرغبة في أن ينظر إليه على أنه مصلح جديد، فيكون لذلك في مركز يمكّنه من أن يجمع حوله جميع طاقات الموحدين ؟ إن الوثائق المتوفرة لا تعيننا على التوصل إلى قرار حاسم بشأن هذه الافتراضات المتضاربة، إلا أن الشيء الأكيد هو أن الإجراء الذي اتخذه أدى إلى تفاقم مشاكل الموحدين . ذلك أن السنوات الخمس التي تلت وفاة المستنصر شهدت اختلالا كبيرا في الأمن وإن ظل الكيان الموحدي قائما، ومن المحتمل أن تدعيمه كان ما يزال ممكنا لأن المبادئ الأساسية للحركة بقيت كما هي، بَيْدَ أن عقيدة الموحدين نفسها وقع إنكارها جزئيا على إثر إعلان المأمون . فماذا بقي إذن من روح الحركة الموحدية ؟ لا شيء، إذا ما اعتبرنا أنها قامت على فكرة المهدي وعصمته بالذات .

وكما بيّنّا سابقا، فإن عبد المؤمن استغل حركة الموحدين لفائدة أسرته، وفي زمن المأمون أصبحت تلك الأسرة علامة على الانقسام، إذ إنّ الكثيرين من أفرادها حاولوا انتزاع السلطة الواحد من الآخر . وإذ انقسمت أسرةُ عبد المؤمن على نفسها وقُضي على أسطورة المهدي، فإن جماعة الموحدين أصبحت جسدا بدون روح، قوامها أفراد أو جماعات تساورها الشكوك، ولم تَعُدْ تدري أي طريق تسلك . ومن السهل أن يتصور المرء موقف كثير من الموحدين حينما علموا بهذا النبإ

(9) المصدر نفسه، ص 318 - 320 الحلل الموشية، ص . 137
[ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 267 - 268 - المعرب]

المذهل، فقد استاء منه الكثيرون واعتبروه إهانة لحقت بهم، وحاولوا التشبث بعظمة ماضي الموحدين وبأسطورة ابن تومرت، كما فعل أبو زكريا الوالي على إفريقية وحفيد الشيخ أبي حفص عمر إنتي، الذي احتفظ في خطبة الجمعة بالدعاء للمهدي بن تومرت، ومنع الدعاء للخليفة الموحدي القائم (10) . وهكذا كان القرار الذي اتخذه المأمون سببا مباشرا في حدوث انشقاق في إمبراطورية الموحدين، ولا شك في أن هذا الانشقاق لم يكن قد تفاقم بعد حتى استحال صدعا يصعب رأبه، فأبو زكريا لم يتخذ سوى إجراء بسيط للاحتفاظ بالوضع كما هو، منتظرا ما سيحدث . ومع ذلك فإن إفريقية لم تعد على وفاق مع جزء من الإمبراطورية لا نعرفه بالتأكيد، لان المطالبيْن بالخلافة كانا يتنافسان للاستيلاء على العاصمة مراكش، مما جعل من الصعب التأكد من معرفة مقر السلطة الرسمية . وإلى جانب مشكلة الفوضى السياسية، أضيف ارتباك معنوي كبير بالنسبة للكثيرين من الناس على إثر إعلان المأمون، فكانوا وكأنهم فقدوا كل سبب صحيح يدعو إلى الثقة والأمل .

وقد دام هذا الحكم – المدمِّر عن غير قصد – حوالي أربع سنوات من عام 624 إلى 629 هـ/ 1228 إلى 1232 م، وفي وقت كان الوضع فيه ما يزال يكتنفه الغموض، وحينما لم يكن باستطاعة المأمون بعد التخلص من منافسه، بل شهد أحد إخوته يقوم عليه في سبتة، توفي وفاة طبيعية في طريق عودته من سبتة حيث كان يحاول عبثا التخلص من الثائر (11) .

وقد خلفه ابنه الأكبر الرشيد، وكان صبيا في الرابعة عشرة من عمره على الأكثر، جيء به إلى الحكم بفضل الجهود المشتركة لوالدته (جارية

---

(10) انظر ر. برونشفيج (BREUNSCHVIG) : شرق المغرب تحت حكم الحفصيين (LA BERBERIE ORIENTALE SOUS LES HAFSIDES) باريس، 1940 ص 21 .

(11) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني ص 338.

[ابن عذاري : البيان المغرب، 3 /281 – المعرب] .

نصرانية) وبعض الرؤساء العسكريين . ولم تكن شخصية الخليفة الشاب قد تكوّنتْ بعد، ولم يفعل سوى اتباع نصيحة مستشاريه الأكبر منه سنا . ومهما يكن من أمر، فإنه أعاد عقيدة الموحدين فورا. إلا أن الخطوة جاءت متأخرة لسوء الحظ. فقد اتصل القضاء بما هو كائن، ولم يُقدّر من بعد ذلك لقوة الموحدين المعنوية أن تعود إلى ما كانت عليه في السابق. ومن ثم فصاعدا عمت الفوضى، ولم يعد لأحد ثقة في الدولة . وأخذ الأفراد - وخصوصا الفئات العرقية المختلفة - يتصرفون تبعا لمصالحهم المباشرة، لا لما تقتضيه المصلحة العامة على المدى البعيد، وكانت القبائل العربية إحدى الفئات التي سلكت هذا المسلك . وبالإضافة إلى ذلك، أخذ العساكر المرتزقة النصارى - الذين ظلوا أوفياء لأولئك الذين دفعوا مرتباتهم - يناصرون هذا الجانب تارة، والجانب الآخر طورا بصورة مفاجئة، رائدهم في ذلك مصالحهم الخاصة . فالعساكر المرتزقة الذين عملوا في جانب منافس الرشيد تخلّوْا عنه فجأة، مما مكّن الخليفة من الاستيلاء على سجلماسة في عام 631 هـ / 1233 م بدون قتال تقريبا . وكانت سجلماسة آنذاك إحدى المدن الرئيسية في الجهات الصحراوية من المغرب الأقصى (12) .

وفضلا عن ذلك، بدأت الحرب الأهلية تلحق ضررا كبيرا باقتصاد البلاد، فقد تضررت كثيرا أهم المدن التي كانت الأهداف الرئيسية للمعارك . لذلك أخذ المواطنون الذين كانوا إلى ذلك الحين أوفياء لنظام الحكم يتخلون عن قضية الموحدين، وكان ولاؤهم - إلى حد كبير - يعود إلى ما كان يسود البلاد من أمن واستقرار . وأخيرا - وهو الأمر الأكثر خطورة - انفصلت أجزاء برمتها عن الإمبراطورية . ومالبث النصارى الإسبان أن اغتنموا ذلك الوضع واستولوا على أجزاء مهمة من أراضي

---

(12) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص 68، انظر كذلك مقال ميراندا بعنوان حكم الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون في مجلة (هسبريس)، العدد 41 (1945)، ص 27 [ابن عذاري : البيان المغرب، 3 / 323 - المعرب] .

المسلمين. فسقطت قرطبة في يد ملك قشتالة عام 633 هـ / 1236 م، واحتل ملك أرغون بلنسية في عام 636 هـ / 1238م . وفي إفريقية ذاتها، فإن الأمير الحفصي أبا زكريا، الذي سبق له أن اتخذ في عهد الخليفة المامون خطوة فعلية نحو الإستقلال حينما توقف عن ذكر اسمه في صلاة الجمعة، بادر بإعلان استقلاله التام في عام 634 هـ / 1236 م، وذكر اسمه هو في الخطبة بعد ذكر اسم الإمام المهدي، مما يدل بوضوح على أنه اعتبر نفسه الوارث الحقيقي الوحيد لنظام حكم الموحدين (13) . وفي الوقت ذاته، فإن بني عبد الواد، وهم قبيلة من البربر كانوا قد اعترفوا بسلطة عبد المؤمن في عام 539 هـ / 1145م، وحصلوا في مقابل ذلك على السيطرة على مقاطعة تلمسان، أعلنوا استقلالهم أيضا تحت إمرة رئيسهم يغمراسن بن زيّان (14). أما بنو مرين، فقد أصبحت لديهم الآن طموحات سياسية، وأخذوا في جباية الضرائب في الجزء الشرقي من المغرب الأقصى، مما يدل على نيتهم في انتهاز أيّة فرصة مواتية لتوسيع رقعة سلطانهم إلى ساحل المحيط الأطلسي .

ومع أن الرشيد شن صحبة أتباعه قتالاً مستمراً (وكانت بعض القبائل و المدن قد اعترفت بسلطته فعلاً)، ومع أن منافسه على الخلافة قتل على أيدي إحدى القبائل العربية، فإنه – حين توفي عام 640 هـ / 1242 م إثر نزلة ألمّت به أثناء تنزهه – لم يترك لخلفه إلا إمبراطورية ممزقة الأوصال، وكان الخليفة الجديد السعيد أخاه الأصغر، وهو مولّدٌ حاد الطبع، لكنه نشيط . وكانت بداية خلافته مثيرة للشفقة . فقد نشبت الثورات في كل مكان، وعمت الفوضى الأجزاء الباقية من إمبراطوريته. ومع ذلك فإن السعيد أبدى نشاطا غير عادي، وأخذ على عاتقه إستعادة إمبراطورية

---

(13) ر. برونشفيج : شرق المغرب تحت حكم الحفصيين، انظر في موضعه.
(14) عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر، 7 / 163 - 164 .
يحيى بن خلدون : بغية الرواد، تحقيق وترجمة ألفريد بيل، الجزائر، 1904 ص 3، 147.
استولى يغمراسن على السلطة في ذي القعدة عام 633 هـ /7 يوليو - 5 أغسطس 1236م

آبائه بقوة السلاح . فبدأ بإعادة سلطته في المغرب الأقصى، وحصل على خضوع بني مرين الذين آثر زعيمهم أبو يحيى أن ينتظر ويرقب النتيجة . ثم جمع جيشا قويا وقام بمهاجمة الثائرين في تلمسان، إلا أنه كان ضحية جرأته، فلقي مصرعه في كمين نُصب له على مقربة من تلمسان في عام 646 هـ / 1248 م (15) . وفي العام نفسه، استولى ملك قشتالة على إشبيلية، وبذلك لم تبق في أيدي المسلمين في الأندلس سوى رقعة ضيقة تضم مالقة وغرناطة والمرية . ومنذ ذلك الحين انتهت إمبراطورية الموحدين . أجل، ظل الخليفة قائما في مدينة مراكش لأكثر من عشرين عاما، أي حتى عام 668 هـ / 1269م، لكن سلطته لم تتجاوز رقعة ضيقة مثلثة الشكل تقع بين وادي أم الربيع وسلسلة الأطلس الأعلى والمحيط الأطلسي. وحينما استولى بنو مرين على مدينة مراكش في عام 668 هـ / 1269م، بقيت حكومة موحدية في تنمل، واستمرت هناك حتى عام 674 هـ/ 1275م. وهكذا فإن الموحدين اختتموا نظام حكمهم، بعد أن جُردوا من ممتلكاتهم في الوادي الضيق الذي بدأ به أمرهم في عهد ابن تومرت . وكان حكمهم قد امتد في وقت ما، فشمل المغرب الإسلامي بأسره. والحقيقة أن إمبراطورية الموحدين لقيت حتفها في عام 646 هـ / 1248 م، بعد إخفاق الخليفة السعيد، ثم استغرق انهيارها التام نحو خمس وعشرين سنة .

هل من الضروري – بعد الذي ذكرناه – أن نضيف أن حضارة الموحدين خلال فترة الضعف، قد هوت بسرعة تفوق سرعة هوّيها السياسي ؟ ومما له دلالة خاصة بالنسبة لنا الأثر الموحدي الوحيد الباقي من تلك الفترة، ونعني بذلك أسوار مدينة فاس التي دكها عبد المؤمن حينما استولى على المدينة، ثم أمر الخليفة الناصر بإعادة بنائها بعد

---

(15) هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية، انظر في موضعه، الجزء الثاني، ص 193 - 194 .
[ابن عذاري البيان المغرب، 3 / 387 - 388، المعرب] .

هزيمة العقاب مباشرة. إن عملا من هذا القبيل يكشف عن أعراض حالة التفكير السائدة في الإمبراطورية في عام 608 هـ / 1212 م . فقد كان الخليفة متخوفا من أن ينقل العدو النصراني الحرب إلى قلب المغرب الأقصى . وفيما عدا ذلك، لم يبق شيء من الآثار الموجودة . فالقصور والمساجد والمصنفات الفلسفية، وحتى المصنّفات الأدبية، اختفت كلها من المسرح، ولم يبق يكتب عن الدولة الموحدية بعد عام 617 هـ / 1220م غير المؤرخ الموحدي عبد الواحد المراكشي الذي هاجر إلى مصر لسبب لا نعلمه . وفي إمبراطورية الموحدين ذاتها، أصيبت الحضارة بالعقم والسبات، وانتهى فجأة السيل الفني والأدبي الذي ظهر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، إذ لم يبق لدى الإمبراطورية الوقت أو الرغبة في شيء سوى الحرب الأهلية .

❄ ❄ ❄

بقي علينا الآن أن نحاول التفكير في الأسباب الحقيقية لهذا الانهيار، وهذا يحتِّم علينا أن ندرس باهتمام الأحوال العامة للحياة السياسية في شمال إفريقيا في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد .

إن أول تعليل - وأوضحه - للفشل النهائي لإمبراطورية الموحدين هو أنها شاسعة جدا، في وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة وصعبة، وفي رقعة أضافت «الطبوغرافيا» فيها صعوبات خاصة إلى صعوبات المسافة، فقد كان ثمة شيء من الغرور في المجازفة للاحتفاظ بجماعة سياسية متناثرة كهذه تحت سلطة مركزية واحدة. وفضلا عن ذلك، إذا كان اختيار مدينة مراكش عاصمة للمغرب الأقصى موضع نظر، لأنها ليست في موقع متوسط حتى بالنسبة لتلك البلاد، فإنها كانت نائية جدا عن شمال إفريقيا

ككل، ناهيك عن الأندلس . ان موقع العاصمة كان في الواقع احد الأسباب التي حملت الخليفة الناصر على جعل إفريقية في عام 603 هـ / 1207 م ولاية شبه مستقلة تحت سلطة واحد من سلالة أبي حفص عمر إنْتي .

ومهما يكن من أمر، فإن التحدي للاحتفاظ بسلامة الإمبراطورية الموحدية تم بنجاح لمدة جاوزت نصف قرن آخر، وهذه الحقيقة وحدها ينبغي أن تعطينا انطباعا حسنا جدا عن الإدارة الموحدية . إننا لا نعرف بالتفصيل النظام الإداري للموحدين، إلا أنه ينبغي أن نقدر ما حققه في وقت كانت فيه الإمبراطورية في أوجها . فهذا النظام الذي تَصوَّره ابن تومرت في تنمل وكيَّفه عبد المؤمن ليلائم إمبراطورية مترامية الأطراف قد دلل على صلاحه، ولا يمكن أن يعزى الانهيار إليه، إلا أنه كان من الضروري أن تتولى يد قوية جدا توجيه إدارة معقدة من هذا القبيل، لأنه لا مفر من أن يعتريها الضعف إذا كان الخليفة رجلا عاديا أو من الدرجة الثانية . ومن الجلي أنه يمكن اعتبار النظام الموحدي غير رديء في حد ذاته، إذ باستطاعته أن يؤدي وظيفته على خير وجه ما كانت القوة المحركة له - الخليفة- صالحة، وطبيعي أن يتوقف الجهاز كله عن العمل في اللحظة التي يعتري فيها القوة المحركة خلل .

ولا يمكن أن نرى إلا سببا واحدا للضعف، سببا خارجيا ذا أهمية، هو هجمات الممالك النصرانية في إسبانيا، إذ اكتفى الموحدون هناك - بالرغم من قوتهم الهائلة - بصدِّ هجمات النصارى . والانتصار الباهر في وقعة الأرك مثال جيد للخطة التي توخَّوْها . فقد كان انتصارا دفاعيا لم يستغله الخليفة، ولا يتضح مما سجله المؤرخون ما إذا كان الخليفة لم يستطع استغلال النصر، أم أنه لم يكن راغبا في استغلاله . وقبل ذلك، كان والده أبو يعقوب قد شن غزوات ضد أراضي النصارى فشلت كلها، وأودت آخرها بحياته، وهكذا فإن الموحدين كانوا يواجهون دائما على حدودهم الشمالية - وهي حدود طويلة جدا وحمايتها صعبة للغاية - ممالك لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئا ضد الإمبراطورية ما بقيت هذه في أوج

قوتها، لكن هذه الممالك كانت دائما على استعداد لاستغلال أقل عثرة، كما حدث مثلا في عام 609 هـ / 1212م في وقعة العقاب، وازداد هذا الاستعداد بشكل ملحوظ حينما تُركتْ الأندلس وشأنها نتيجة للفوضى التي عمّت صفوف الموحدين. ويمكن تقدير الافتراض التالي : وهو أن هجمات النصارى لم تؤد إلا إلى نتائج محلية ولم يكن لها عمليا أي تأثير على وضع الإمبراطورية الداخلي، إلا أننا من ناحيتنا لا نستطيع أن نفترض ذلك. لقد كانت حركة الموحدين حركة دينية قبل كل شيء، نشأت وتقدمت نتيجة لحماس ديني كبير، وحين ظفرت الجيوش النصرانية بانتصارات على جنود المسلمين (وكانت كما تفيد المصادر المعاصرة ألد القوات عداء في ذلك الجزء من العالم الإسلامي)، كان ذلك ضربة قاسية نالت القوة الدافعة النفسية لحركة الموحدين . ولذلك فمن المرجح أن هزيمة العقاب، والانتصارات التي أحرزها النصارى في عام 633 هـ / 1235م لعبت دورا مهما في انهيار الموحدين، من خلال تأثيرها النفسي القوي على عقول المسلمين ورسالتهم . ولم يكن هذا بالطبع السبب الرئيسي، لأنه مهما كانت قيمة تلك الانتصارات وأهميتها ما كان ملوك إسبانيا النصرانية لينجحوا في القضاء على إمبراطورية الموحدين، لو لم تكن قد عانت من الاضطرابات الداخلية . ويمكن لنا أن نقول واثقين إنها دمرت نفسها بنفسها .

وكثيرا ما افترض المؤرخون وخصوصا هنري تراس في كتابه (تاريخ المغرب الأقصى)، أن القبائل العربية لعبت دورا كبيرا في ضعف الموحدين، وأن عبد المؤمن والمنصور أخطآ في حملهما العرب على القدوم إلى المغرب الأقصى حيث لم يكونوا راغبين في الانتقال (16) . والحق أن تلك القبائل ساهمت مساهمة كبيرة في الاضطرابات التي حدثت في عام 625 هـ / 1228م والسنوات التي تلتها، وأنها بعد ذلك ساعدت كثيرا

(16) هنري تراس : تاريخ المغرب الأقصى، باريس، 1949 - 1950، الجزء الأول، ص 360 - 361. والجزء الثاني، ص 415 - 416 .

على تفاقم الأوضاع التي كانت تدنو من الفوضى . لقد كان العرب في المغرب الأقصى أغرابا بالفعل في بلاد معظم سكانها من البربر، وبالتالي فإنهم شعروا بحرية العمل كيفما شاؤوا حين كان يبدو أي تراخ من جانب السلطة المركزية، ولم يحرموا أنفسهم من شيء ولم يضبطهم أي ضابط، بخلاف ما هو عليه الحال لدى معظم قبائل البربر التي كانت تضبطها التحالفات العريقة والولاء والتقاليد القوية . ولما كان العرب قد دخلوا المغرب الأقصى رغم إرادتهم، فإنهم رأوا من حقهم التصرف حسبما تُمليه عليهم مصالحهم العاجلة، ومعنى ذلك أنهم تحالفوا مع أفضل مُساوِمٍ أو مع الذين ظنوا أنهم يهيئون لهم أحسن الفرص في المستقبل القريب، ولم يترددوا في تبديل موقفهم إذا كانت الظروف تبرر ذلك .

وبعد دراسة دقيقة، يبدو لنا أن العرب إنما انتهزوا فرصة ظروف لم تكن من صنعهم . فقد تأخروا في المشاركة في "اللعبة" في وقت كان فيه عدة خلفاء يتصارعون على السلطة، وكانت وحدة الموحدين قد تقوّضت بالفعل، ولذلك فلا يمكن اعتبار العرب مسؤولين عن ضعف الموحدين، إنهم لم يزيدوا الوضع تفاقما إلا حين كان محتملا أنه استعصى علاجه. وباختصار، فإن العرب - كملوك النصارى في إسبانيا - إلتزموا الهدوء ماظلت سلطة الموحدين قوية، وحينما ضعفت شاركوا في "اللعبة" . ولا يستطيع المرء أن ينكر أنهم في هذه الفترة من تاريخ المغرب الأقصى، وفي ما بعد خلال فترات أخرى من الفوضى، شكلوا تأثيرا مخربا، إلا أنه ينبغي أن نحذر من المبالغة في ذلك التأثير . فقبائل البدو لم تقم بذلك الدور إلا حينما أتاح المغرب الأقصى الفرصة لها .

وينبغي أن نبحث عن سبب غير هذا كتفسير صحيح لضعف الموحدين . لقد سبق أن ذكرنا أن عبد المؤمن هو الذي تحمل المسؤولية الأولى حينما سعى لأن يسخر لفائدة اسرته الحماس الجارف، الذي عن طريقه استولى الموحدون على المغرب الأقصى والأندلس ثم المغرب بأسره، لكن علينا أن نتوخى الدقة في تحديد المسؤولية . فحينما أقام عبد

المؤمن نظاما ملكيا وراثيا، تمشيا مع تقليد الدول الإسلامية السابقة سواء أكانت أموية أم عباسية أم فاطمية - أي حينما عهد إلى أبنائه وأفراد أسرته بمهام السلطة الرئيسية - فإنه دمر الطبيعة الأساسية لحركة الموحدين القائمة حتى ذلك الوقت على تعاون قبائل البربر التي اعترفت برئيسها على أنه يتمتع بسلطة دينية .

وبعد أن تولى عبد المؤمن وعقِبُه السلطة، لم يَعُدْ اختيار السلطان راجعا إلى ما يتحلى به من صفات دينية، بل إلى القرابة، ولم يَعُدْ الاعتراف به منوطا بعهدة القبائل، بل بوجوه الإمبراطورية ومن بينهم رؤساء القبائل العربية . فهل كان عبد المؤمن بهذه السياسة يدرك أنه يقوض ماكان ابن تومرت قد شيده بصبر ؟ إننا لانعتقد ذلك، لأن الرجل - حسب القرائن المتوفرة - لم يكن مخادعا، وكان نشيطا شجاعا صريحا . لقد قام بما قام به اعتقادا منه - حسب المحتمل - أنه إنما كان يرسخ عمل سيده، ويضمن في الوقت ذاته مستقبل أسرته، وهو تصرف بشري مألوف .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه - باستثناء الإمتيازات التي مُنحتْ لأسرته - ظل بقية عمل المهدي دون تغيير، إذ احتفظ بنظام طبقات القبائل الذي ابتكره ابن تومرت، وبمختلف أنواع الفنيين الذين طرأ تحسين على تدريبهم. كذلك احتفظت أسر الأصحاب الأوائل للمهدي، كابي حفص عمر إنتي، بامتيازاتها وبمسؤولياتها، ومنحت لها ضروب الإنعامات تدريجيا. من ذلك أن رجلا من عقب أبي حفص عُين في مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي واليا على إفريقية، ومُنح سلطة كبيرة . وأخيرا، فإن عقيدة الموحدين بقيت دون أن تُمسّ، ودُرست تواليف ابن تومرت باهتمام كبير كما كانت تدرس في حياة صاحبها، جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ونظرا لمرور زمن طويل، فإننا نستطيع التأكد من أن بعض التغييرات كانت تحدث بالفعل، إلا أنه يبدو أن المعاصرين لها لم يشعروا بذلك (باستثناء أخوي المهدي، اللذين يظن أنهما تآمرا ضد نظام الحكم لأسباب شخصية بحتة أكثر منها أسبابا عامة وشريفة).

بَيْدَ أن عبد المؤمن بمنحه أسرته سلطات كبيرة، هيّأ لحفيده الخليفة المأمون أسباب التخلي عن عقيدة الموحدين الأساسية . ويبدو جليا أن المأمون بقراره ذاك، كان يعمل بوحي شخصي، إذ لو سار على النظم التي أقامها المهدي في تتمل، لكان استشار مجلسه بشأن قراره البالغ الخطورة، ولو فعل لرفض مجلسه الاقتراح دون شك واحتفظ بتقليد ابن تومرت . ومما يثبت صحة هذا الرأي أن سلطان تونس الحفصي أعلن تعلقه بالعقيدة التي هي في الواقع روح حركة الموحدين وأساس إمبراطوريتهم . كما يبدو واضحا أن أبا زكريا سلطان تونس، لم يحاول أن يتخذ من ذلك القرار ذريعة للانفصال عن الخليفة الموحدي والاستئثار بالسلطة لنفسه، بل إنه على العكس من ذلك، ظل مؤملا بمنتهى الحذر في أن تتغلب الحكمة وأن يعود العمل عاجلا بتقليد الموحدين . لذلك يمكن للمرء أن يجزم بأن أسرة عبد المؤمن دمرت نفسها دون شعور منها، أولا بسبب إجراءات عبد المؤمن نفسه، ثم بسبب مسلك المأمون . والواقع أنهم أزالوا جوهر حركة الموحدين، أي التعلق العاطفي بعقيدة قوية، بدونها تغدو جماعات البشر أشبه بجسد دون روح، وفي هذا الاستنتاج نجد تفسيرا أساسيا واحدا لانهيار الموحدين وللسرعة التي تم بها الانهيار.

هذا ويبدو لنا أن ثمة أسبابا أخرى . ذلك أننا أكدنا تأكيدا قويا على عظمة حضارة الموحدين وجمالها، ونحن لا نتراجع فيما سبق أن قلناه بهذا الشأن، إلا أنه ينبغي درسها عن كثب وتقييم تأثيرها . إن المرء حينما يتأمل في الأسوار والمساجد التي شيدها خلفاء الموحدين ويقرأ المصنّفات الفلسفية لابن طفيل وابن رشد، يحق له أن يعجب بها كل الإعجاب، ولعله يميل إلى الاعتقاد بأن الإمبراطورية كلها شاركت في صنع هذه العظمة، وهو افتراض خاطيء. ذلك أن حضارة الموحدين أقامتها في رأينا نخبة صغيرة جدا، ويبدو واضحا أن إنشاءها لا يرجع إلا إلى السلطان ورجال بلاطه : فجميع المنشآت العظيمة التي نبدي إعجابنا

ببقاياها الجميلة كان الخليفة قد أمر بتشييدها، والشعراء والفلاسفة والفقهاء والمؤرخون - وعددهم لم يكن كبيرا على أية حال - لم يوجدوا إلا في بلاط الخليفة في مدينة مراكش، أو حول الولاة في فاس واشبيلية وتلمسان وتونس. وإذا ما أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فإن هذه الحضارة لم تكن سوى مظهر خارجي، بالغة ما بلغت من التألق، وتحت هذا المظهر كانت تكمن حقيقة مختلفة تماما .

لقد كانت تعيش خلف المظاهر الخارجية لبعض المدن التي يسهب المؤرخون في الحديث عنها والتي لم تكن كثيرة العدد أو كثيرة السكان، جماهير قبائل البربر التي لم تتغلغل فيها حركة الموحدين بصورة تذكر. أجل، إن بعض القبائل في زمن ابن تومرت كانت قد أثارتها حمية دينية لا شك فيها أفضت بها إلى تشييد إمبراطورية، إلا أن هذه الحمية لم تلبث أن صارت مجرد عادة دينية، وفقدت قوتها الحيوية الأصلية . وعلاوة على ذلك، احتفظت القبائل بنمط حياتها الذي تميز إجمالا بالشقاء والبساطة، كما احتفظت بلسانها البربري وبعادات آبائها التي لم تكن دائما تتفق وتعاليم الإسلام. وإذ قد اقتصر استعمال اللغة العربية على القبائل العربية والمدن الرئيسية والبلاط، فإن قبائل البربر لم يكن لها عمليا سبيل إلى الثقافة العربية . ولم تكن ثمة طبقة وسطى بين الجماهير في الأرياف وبين النخبة المترعمة، لأن هذه الطبقة التي اقتصر وجودها على بعض المدن كانت صغيرة جدا وتتكون في كثير من الحالات من أناس وفدوا من الأندلس، كابن طفيل وابن رشد، ومشيدي المباني التي أقيمت في مدينة مراكش أو الرباط . ومن المحتمل أن الأندلسيين من ذوي الثقافة الرفيعة لم يبْدوا نحو البربر الجفاة سوى الازدراء، ولم يفعلوا شيئا لاجتذابهم إلى الحضارة الباهرة التي يمثلونها، ونحن هنا لا نرمي إلى التنديد بزعماء الموحدين أو اتهامهم بعقلية متحجرة تناوىء التقدم ونشر المعرفة، لأن الإهتمام الحديث بتثقيف الجماهير لم يكن معروفا في ذلك الوقت، وحتى لو عُرف، فإن نشر حضارة مدينة مراكش في أودية الأطلس العالي عملية تحتاج إلى

وقت طويل، ولم تعش دولة الموحدين إلا أقل من قرن واحد . ومع ذلك، فالحقيقة هي أن النخبة الموحدية حققت أشياء عظيمة، إلا أنها تركت خلفها جمهور العامة على ما هو عليه، وما صح بالنسبة للقبائل التي شاركت في الحركة في تنمل، يكون بالأحرى أصح بالنسبة لتلك الشعوب بما فيهم العرب، وقد تم إخضاعها وضمها بالقوة إلى إمبراطورية لم تكن تبدي نحوها أي حماس .

ولعلّنا قد وصلنا الآن إلى النقطة الأساسية، إن إمبراطورية الموحدين نشأت عن الفتح، شأنها في ذلك شأن الإمبراطوريات السابقة في شمال إفريقيا . وكما أن البربر من الصحراء الغربية أقاموا إمبراطورية المرابطين لفائدتهم الخاصة، ودون أن يشركوا الشعوب الخاضعة لإدارتهم في الحكم أو الحياة الثقافية، فإن إمبراطورية الموحدين أقامتها قبائل مصمودة من منطقة الأطلس الأعلى لمصلحتها الخاصة، وكانت الشعوب الأخرى في الإمبراطورية في خدمة المصامدة . ومن الممكن أن يكون المصامدة، في إخلاصهم لتعاليم المهدي ومثله الأعلى عن العدالة، انتهجوا سبيل الاعتدال والإنصاف تجاه المهزومين، إلا أن العلاقات كانت دائما وعلى أية حال علاقات غالب ومغلوب، وخير دليل على ذلك يقدمه الأندلسيون الذين ثاروا ضد حكم الموحدين حالما بدت عليه أمارات الضعف. وفضلا عن ذلك، فإن أولئك الأندلسيين كان لديهم من الأسباب ما يدعوهم إلى التزام جانب التعقل، إذ كانوا يدركون تمام الإدراك، بعد التجربة الطويلة أن العدو النصراني يتربص بهم، وأنهم وحدهم عاجزون عن دفع أذى النصارى . وبالرغم عن الوثوق من استهدافهم للعدوان لم يسلكوا مسلكا حكيما، إذ خضعوا لشعور العداء للموحدين السائد بينهم، وحاولوا قبل كل شيء التخلص من الفاتحين البربر دون تدبر للعواقب.

ومَثَلٌ آخر على هذا الشعور نفسه يدل عليه سلوك أهل المهدية في إفريقية : فقد استصرخوا الموحدين في عام 551 هـ/1156 م ضد النورمان

القادمين من جزيرة صقلية، الذين استولوا على مدينتهم قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات، وقد قام عبد المؤمن بتحريرهم . وفي عام 595 هـ / 1199 م، قَدِمَ إليهم ثائر ضد الموحدين فرحبوا به وآزروه وذلك بعد أربعين سنة فقط من حكم الموحدين . كما أن قبيلة غُمارة في شمال المغرب الأقصى ثارت مرات عديدة لأنها لم تستطع قط قبول سلطة الموحدين .

إننا لا نقصد التنديد بالموحدين أو أن نوجِّهَ إليهم وحدهم تهمة اتخاذ موقف كان سائدا في ذلك العهد . إلا أن الحقيقة تظل ماثلة دائما : فالمصامدة حكموا إمبراطوريتهم كغالبين، وفشلوا في أن يغرسوا في الشعوب المحكومة شعورا بالوحدة والأمن. إن سكان المدن الكبيرة التي استفادت مباشرة من حضارة الموحدين ومن السلام الذي واكبها، كانوا في نهاية الأمر هم الوحيدين الذين ظلوا على ولائهم للإمبراطورية ولم يقوموا قط بمعارضتها جديا حتى خلال الفترة الأخيرة للفوضى التي عمّت الإمبراطورية . وفي رأينا أن السبب الرئيسي لإخفاق الموحدين هو أن قبائل مصمودة التي استطاعت أن تنشيء إمبراطورية، لم تُوفَّقْ في الاحتفاظ بها، لأنها أبقت الشعوب المغلوبة في حالة خضوع دائم، ولم تشركها في إدارة الإمبراطورية .

كلمة حول المصادر
وقائمة بالمصنَّفات التاريخية المعاصرة لعهد الموحدين
والدراسات الحديثة

ما يزال من الممكن اكتشاف مصادر جديدة للمعلومات حول عصر الموحدين، إذ لم يتم بعد إعداد قائمة كاملة بمحتويات دور المحفوظات والمكتبات حيث قد يعثر عليها، ولاسيما في المغرب الأقصى. ومع ذلك، فإن مصادر التوثيق حول هذه الفترة مرضية نسبيا الآن، ونورد فيما يلي قائمة بالمصنفات التاريخية المعاصرة لعهد الموحدين والدراسات الحديثة .

وأول المصادر المعاصرة للأحداث نفسها مجموعة من تواليف ابن تومرت : (كتاب أعزُّ ما يُطلب)، وكان الخليفة عبد المؤمن قد أمر بجمع تلك التواليف، وتولى نشرها في مطلع القرن العشرين ج. د. لوسياني (انظر أسفله). وهناك أيضا الوثائق التي نشرها وترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها بمنتهى الدقة أستاذي المرحوم إيفارست ليفي - بروفنسال (انظر أسفله) :

(سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية) "انظر أسفله"

و (وثائق لم تنشر عن تاريخ الموحدين) " انظر أسفله "

وهي تشمل بعض الرسائل الصادرة عن ابن تومرت وعبد المؤمن، و(كتاب الأنساب) الذي أُلِّف في النصف الأول من القرن السابع الهجري /

(J. D. LUCIANI)

(EVARISTE LEVI-PROVENÇAL)

(TRENTE-SEPT LETTRES OFFICIELLES ALMOHADES)

(DOCUMENTS INEDITS D'HISTOIRE ALMOHADES)

الثالث عشر الميلادي، وبصورة خاصة (كتاب المهدي ابن تومرت)، وهو "مذكرات" أبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق، الذي كان من أوائل أصحاب المهدي ابن تومرت بُعيْد عودته من المشرق .

ويضاف إليها بعض كتب التاريخ التي صنفها معاصرون للعهد الموحدي، وهي : (المُعجِب) لعبد الواحد المراكشي، و(نَظْمُ الجُمان) لابن القطان – وتتناول أول قطعة نشرت منه الفترة ما بين 500 - 533 هـ / 1106 - 1138م، – وكتاب (المنُّ بالإمامة) لابن صاحب الصلاة، وقد نشرت القطعة الوحيدة التي وصلتنا منه وهي تتناول الفترة الواقعة بين 578 - 550 هـ / 1155 - 1182م. كما نشر الجزء الثالث من (البيان المغرب) لابن عذاري .

ثم تأتي كتب التاريخ الكبيرة المعروفة عموما مثل : (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، و (البيان المغرب) لابن عذاري المراكشي، و (روض القرطاس) الذي ألّفه رجل لانعرف سوى اسمه هو ابن أبي زرع الفاسي، و (تاريخ الدولتين) المنسوب للزركشي، وكتاب (الحلل الموشية) لمؤلف مجهول الاسم عاش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، و (كتاب العِبَر) لابن خلدون .

وقد كُتب عدد كبير نسبيا من الدراسات عن تاريخ الموحدين نورد فيما يلي أهمها : التاريخ الأول الذي نُشر كان دراسة سطحية وغير علمية قام بها أحد الدبلوماسيين الفرنسيين هو ريني مييه (انظر أسفله) . ثم تأتي الدراسات التي اضطلع بها فريق لامع من رجال معهد الدراسات العليا بالمغرب الأقصى ضم هنري باسيه (انظر أسفله) وهنري تراس (انظر أسفله) وروبير مونتان (أنظر أسفله) وإيفارست ليفي – بروفنسال .

(RENE MILLET)
(HENRI BASSET)
(HENRI TERRASSE)
(ROBERT MONTAGNE)

وثمة فصول كُرِّست لدراسة تاريخ الموحدين في المجموعات التاريخية المعروفة لشارل - أندريه جوليان (انظر اسفله)، وإميل فيلكس جوتيه (انظر أسفله)، وجورج مارسيه (انظر أسفله)، وهنري تراس (انظر أسفله) . وثمة أخيرا الدراسات المعمقة التي نشرها في السنوات الأخيرة علي مراد، و ج. ف. ب هوبكنز (انظر أسفله)، وفي مقدمتها ما نشره الباحث البلنسي أمبروسيو هويثي ميراندا (انظر أسفله) الذي ندين له كثيرا بعدد من الترجمات الممتازة المرفقة بالحواشي والشروح، وبتاريخه السياسي النفيس عن إمبراطورية الموحدين . ولدينا الآن أيضا كتاب معتبر ألّفه جاستون ديفردون (انظر أسفله) عن مدينة مراكش عاصمة إمبراطورية الموحدين .

أما ما ألّفه الباحثون المسلمون فهو محدود إلى الآن، فبالإضافة إلى كتاب علي مراد الآنف الذكر، لا توجد سوى دراسة بالعربية لباحث مغربي هو محمد رشيد ملين تتناول عهد المنصور، وكتاب آخر بالعربية أيضا من تأليف محمد منوني يتناول الحياة الثقافية في عهد الموحدين، ورسالة دكتوراه بالفرنسية للباحث المصري سعد زغلول عن الخليفة المنصور. ويحدونا الأمل في أن يساهم الباحثون المغاربة قريبا في دراسة تاريخ الموحدين بما يتلاءم وأهميتهم بالنسبة لتاريخ المغرب الأقصى والغرب الإسلامي .

(CHARLES-ANDRE JULIEN)
(EMILE-FELIX GAUTIER)
(GEORGES MARÇAIS)
(HENRI TERRASSE)
(J. F. P. HOPKINS)
(AMBROSIO HUICI MIRANDA)
(GASTON DEVERDUN)

وفي الواقع فإن مجهودا كبيرا ما زال ينتظر المتطوعين له في هذا الميدان، إذ يُظَنُّ أن بعض الكتب أو الوثائق التي نجهلها، ما تزال محفوظة في دور المحفوظات والمكتبات في المغرب الأقصى. لذلك فإنه من الضروري أن يتواصل البحث بأسرع ما يمكن، وأن تُعَدَّ قائمة بمجموعات الوثائق التي لم تكتشف بعد .

ولما كان الباحث هويثي ميراندا قد اقتصر على الدراسة السياسية لحركة الموحدين، فإن الحاجة ما تزال قائمة لرسم صورة للحياة الاقتصادية والاجتماعية للموحدين، فضلا عن تطورهم الفكري .

وبالرغم من الدراسات التي كُرِّستْ للموضوع، فما تزال أكثر من قضية قائمة، نذكر منها على سبيل المثال تواريخ سيرة ابن تومرت ووفاته، ونظام الطبقات الذي ابتكره وأدخل عبد المؤمن تعديلات عليه، والتنظيم الإداري لإمبراطورية الموحدين (وأسباب انهيارها بهذه السرعة)، فكل ذلك لم يُدْرسْ دراسة كافية .

ومجمل القول أن هذه الحقبة التي تستهوي المرء من وجهات نظر كثيرة، ما تزال جديرة بالمزيد من الدراسة .

❶ مصنَّفات تاريخية معاصرة لعهد الموحدين

كتاب المهدي بن تومرت مهدي الموحدين، حققه وقدم له إ. جولدزيهر (انظر اسفله)، الجزائر، 1903 .

سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية، تحقيق إيفارست ليفي - بروفنسال، الرباط ، 1941 .

إيفارست ليفي- بروفنسال : «مجموعة من الرسائل الرسمية الموحدية، دراسة دبلوماسية وتحليل وتعليق تاريخي»، مجلة «هسبريس» (انظر أسفله) العدد 28 (1941)، ص 1 - 80. نشرت المجموعة في كتاب مستقل في باريس عام 1962 .

إيفارست ليفي - بروفنسال : وثائق لم تُنشرْ عن تاريخ الموحدين، باريس، 1928 .

عبد الواحد المراكشي : المُعْجِب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1949 .

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المجلدان الثامن والتاسع، بيروت، 1967 .

أمبروسيو هويثي ميراندا : مجموعة مصنفات تاريخية عربية عن حرب الاسترداد (انظر أسفله) .

الجزآن الثاني والثالث .

ابن عذاري : الجزء الثالث من كتاب (البيان المُغرب)، عني بنشره

(I. GOLDZIHER)

(HESPERIS)

(Collection DE CRONICAS ARABES DE LA RECONQUISTA)

أمبرسيو هويثي ميراندا، مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، تطوان، 1963.

ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس، تحقيق س. ج. تورنبرج، (انظر أسفله)، مجلدان، أبسالة، 43 - 1846.

الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية : مؤلف مجهول الإسم، تحقيق أ. س. علّوش، الرباط، 1936.

ابن صاحب الصلاة : المنُّ بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1964.

ابن القطان : جزء من كتاب (نَظْم الجُمان)، تحقيق محمود علي مكي، بيروت1990.

ابن خلدون : كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت، 1959.

(C. J. TORNBERG)

❷ دراسات تاريخية بلغات أجنبية

II- HISTORICAL STUDIES

René Millet, *les Almohades, histoire d'une dynastie berbère* Paris, 1923.

Henri Basset, « Ibn Toumert, chef d'Etat », *Revue de l'histoire des religions, II(1925), 438-39. In collaboration* with Henri Terrasse, *Sanctuaires et forteresses almohades*, Paris, 1932 .

Henri Terrasse, *L'art hispano-mauresque des origines au XIIIè siècle*, Paris, 1932 ; *La mosquée des Andalous à Fès*, Paris, 1941 ; *La grande Mosquée de Taza*, Paris, 1944.

Robert Montagne, *Les Berbères et la Makhzen dans le Sud du Maroc* . Paris, 1930 .

Evariste Lévi-Provençal, « Ibn Toumert et Abd al-Mümin» ; le « fakih du Sus » et le « flambeau des Almohades », *in Mémoral Henri Basset,* II, Paris, 1928, pp . 21 - 37 .

Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord.* 2 nd edn. , II, Paris 1952, pp. 92 - 131 (revised by R. Le Tourneau) .

Emile-Félix Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord : Les siècles obscurs,* Paris, 1937 .

Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age,* Paris, 1946, pp. 253 - 75 .

Henri Terrasse, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français,* I, Casablanca, 1949, pp. 261 - 367 .

Ali Merad, « Abd al-Mu'min à la conquête de l'Afrique du Nord (1130 - 1163) », and « Contribution à l'histoire de la dynastie mu'minide (1163 - 1223) », *in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger*, XV (1957), pp. 109 - 63 and XX (1962), pp. 401- 75 .

J. F. P. Hopkins, « The Almohade Hierarchy », *in Medieval Muslim Gouvernment in Barbary until the Sixth Century of the Hijra* . London, 1958, pp. 85 - 111 . (انظر أسفله)

Ambrosio Huici Miranda, *Historia politica del imperio almohade,* 2 vols. , Tétuan, 1956 - 1959 ; « El reinado del califa almohade al-Rasid, hijo de al-Ma'mun », *Hespéris,* XLI (1954), 9 - 45 ; « La leyenda y la historia en los origenes del imperio almohade », *Al-Andalus*, XIV (1949), 339 - 76 .

Gaston Deverdun, *Marrakech des origines à 1912*. I., Rabat, 1959, pp. 151 - 391 .

Muhammad Rashid Mulin, *Asr al-Mansur al-muwahhidi* . Rabat, 1946 .

Muhammad Manuni, *Al-ulum wa'l-adab wa'l-funun ala ahd al-Muwahhidin* . Tetuan, 1950 .

Sa'd Zaghlul, *Abu Yusuf al-Mansur l'Almohade (1184 à 1199)* . A thesis defended at the Sorbonne in 1952. Unpublished .

صدر هذا الكتاب عن شركة النشر والتوزيع المدارس بعنوان : النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء 1998.

كشاف عام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الكتاب



ان هذا الكتاب هو، كما يذكر مؤلفه، مجموعة تأملات حول حركة الموحدين منذ بدايتها حتى نهاية دولة الموحدين، ضمّنها المؤلف ثلاث محاضرات القاها في جامعة برنستون الأمريكية، تناول فيها على التوالي مولد الحركة ، وتشييد الأمبراطورية ، وتداعيها وسقوطها. والحق يقال إن المؤلف وفق فيها على التوفيق ، وتابع تاريخ الموحدين خطوة خطوة من البداية حتى النهاية ، محلّلا ومعلّلا ومدعما حجته بالأدلة. وعلى ذلك، فالكتاب قيِّم بالغ الأهمية للباحثين والدارسين من حيث عرضه للحقائق وتحليلها تحليلا علميا وافيا.

شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني ــ الدار البيضاء